نعيم القبر

وجمالات الآخرة

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

Abul Azayem
www.abulazayem.com

Version 2.8 / February, 2025

نعيم القبر وجمالات الآخرة

الإمام المجدد

السيد محمد ماضي أبو العزائم

١٢٨٦ - ١٣٥٦ هجرية / ١٨٦٩-١٩٣٧ ميلادية

بسم الله الرحمن الرحيم

الباب الأول

النشأة الروحانية

الفصل الأول

الحقيقة المحمدية

الحقيقة المحمدية وجمال العود للبدء

معلوم أن أول الإرادة آخر العمل، وأول مراد الله تعالى هو حبيبه ومصطفاه ﷺ، وسبق فى علمه أنه حبيبه ومصطفاه، وأنه الإنسان الكلى الممد لجميع العوالم، وخلق جميع الخلائق له ﷺ كما ورد فى الحديث بسند الإمام محمد بن سهل رضي الله عنه فى تفسيره للقرآن، يقول الله تعالى: (إنى خلقت محمداً لذاتى، وخلقت آدم لمحمد، وخلقت كل شئ لبنى آدم) إلى آخر الحديث.

أبرز الله الكون متطوراً أطواراً ليعده لإشراق شمس حبيبه ومصطفاه، فكان ﷺ فاتحاً خاتماً، كما قال علىٌّ عليه السلام: (اللهم صلِ على محمد الفاتح لما أُغلق، والخاتم لما سبق، والناصر الحق بالحق وآله).

أشرقت شمسه ﷺ بالنور العام الدائم الذى لا يغيب، لأن شمسه لا تأفل كما قال عبد القادر الجيلانى رحمه الله:

أفلت شموس الأولين وشمسنا أبداً على فلك العلا لا تغرب

فجعله الله تعالى فاتحة الإيجاد، وخاتمة للرسل، فلا نبى بعده.

أرسله الله رحمة للعالمين وسراجاً منيراً، أسرج سرج الرسل والأنبياء من قبله، والصديقين والشهداء من بعده، سماه الله سراجاً منيراً ولم يسمه شمساً، لأن السراج يسرج غيره، ولكن

الشمس لا تجعل شمساً غيرها، وهو ﷺ أول الإرادة وآخر العمل.

وهنا أبسط لك بساط المؤانسة لتلحظ بعيون روحك وميضاً من سر منازلاته ﷺ، وتقتبس بسرك قبساً من مشكاته المحمدية، تكون به متجملاً باليقين الحق فى مقام العبودية المُطلقة.

إن مقتضى كمال الأسماء والصفات إبراز المرائى التى تظهر فيها تلك المعانى، ولما كان العالم أجمع إنما خلقه الله تعالى ليظهر سبحانه ببدائع إبداع صنعه، وغرائب حكمته وعجائب قدرته، وظهوره إما لنفسه فاعلاً مختاراً أو لخلقه رباً معبوداً قهاراً، اقتضت إرادته الأزلية تعيين حقيقة كاملة قابلة لكمال تجليه وظهور معانيه، فكانت تلك الحقيقة المُختارة لحضرته هى حقيقة سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

اقتضت تلك الحقيقة فى حضرة العلم مقتضياتها التى بها تكون سدرة منتهى علوم الخلائق، المغشية بكمال ظهور المعانى – معانى الأسماء الربانية – ومظهراً أكمل لكمال المعانى المناسبة لحضرة الألوهة من العبودية والعبادة، روحاً وعقلاً وجسماً وحساً، ومقتضيات تلك الحقيقة ظهور:

١ عالم يطيع فلا يعصى، وهو ثلاثة أنواع:

أ أعلى عليين، وهم الآلهون المهيمون بجلال الله فوق عمار سماواته.

ب وعالون، وهم الحافون بعرش الرحمن، ومنهم الكربيون.

ج وعمار السماوات، وملكوت الأرض، وهم الملائكة المقربون.

٢ ونوع يعصى ولا يطيع، وهم المردة وشياطين الجن.

٣ واقتضى الكمال الربانى أن تكون حقيقة أخرى قابلة للطاعة والمعصية، ليتم ظهور معانى الصفات، فخلق سبحانه آدم ورفعه على الملائكة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ البقرة ٣١-٣٢، وآدم علم الملائكة بعض الأسماء، فكان آدم محيطاً بكل الأسماء والملائكة فى حاجة إلى تعلم بعضها منه ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ البقرة ٣٣.

ظهر مقتضى إرادة الله فى تلك الحقيقة، فأطاع آدم وعصى، قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ طه ١٢١، إبرازاً لسر الإرادة، وإظهاراً لتجلى الاسم التواب، الغفور العفو، وتنبيهاً لأولاده من بعده أن يسارعوا بالتوبة إذا أخطأوا؛ فانبلجت حقيقة إرادة الله تعالى فى إظهار آدم.

افتتح سبحانه وتعالى إبراز تلك الحقائق بآدم ليكاشف من اجتباهم بحقيقة نشأتهم الأولى أنها من أركان الوجود: التراب والماء والهواء والنار، فيعلم الإنسان نشأته الأولى فيقف موقف العبد خشوعاً لربه، ولذلك فالله تعالى كرر تلك الحقيقة فى القرآن أكثر مما كرر غيرها، وهى الدواء الأخير لمرض الشرك المُنزل منزلة الكى فى المرض العضال، فكم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ المؤمنون ١٢-١٣، فأثبت أن نشأة الإنسان الأولى من طين أو ماء مهين، ليستحضر عند إسباغ آلاء الله عليه رتبته الأولى، شاكراً الله على جزيل نعماه، وإنى أبين لك فى هذه العجالة ما يمكن أن يحيط به عبد ووجه بأنوار تلك المكانة المُحمدية على قدره، لا على قدر مكانتها من الله، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء ٨٥.

الحياة بدءاً

هى الحياة حياة مشاهد القدس ... بها الصفا فى مقام القرب والأنس
حياة روحى إذا شهدت ضيا أزل ... متنزلاً نوره من طلعة الشمس
من التنزل فى حال الصفا أرى ... نور الجميل بلا عرش ولا كرسى
يستتر الكون وجه الحق يشرق لى ... يحيط بى فترى أسراره نفسى
كأننى فى الصفا حالى له مثل ... مواجه وجهه لا روض فردوس

الحياة قبل أطوار الحقيقة الإنسانية

حياتى بدء بدءٍ نور مجلى ... ضيا أسماء من لى قد تجلى
وقبل تطورى قد كنت نوراً ... مبيناً ظاهراً فى القدس يجلى
ومقتضيات أسماء تعالت ... ألاحتنى مثالاً لست مثلاً
ولم تك (كن) لديها حيث قدرى ... بكنز الغيب فى قدرٍ معلى
أنا رمز لقدر عز قدراً ... أشير لقادر عز وجلا
وصورة مقتضى الأسماء تنبى ... بقدر لا بقدر غاب أعلى
خفيت ولم أزل فى رمز ظلى ... أرى للحس محجوباً ومقلى
ولم أظهر وحكمة بدء بدئى ... ظهور الحق من بى ثم أولى
ظهرت ليظهر الغيب اتضاحاً ... بآى قبلها الهبا المحلى
ومن قبل الهبا عماً وغيب ... عن الأرواح عز فليس يجلى

فاتحة الإيجاد وخاتمة الإمداد ﷺ

يا أول البدء تعييناً وإيجاداً ... يا آخر الختم تشريفاً وإمداداً
يا قبضة النور من غيب البطون ... كنز الظهور بحال العهد إرشاداً
يا شمس قدس أضاءت فى منازلة ... فى يوم واثق أمناء وأفراداً
أشرقت يا سيدى نوراً به ظهرت ... كل العوالم أنواعاً وأعداداً

من نـــورك الغيب يـــا مـــولاى فى ملأ أعلى ومـــنه الـــتجلى دام آبـــــــاداً
من قـبل كـن أنت نـور فى مـواجهـة من بعـدهـا أنت شـمس الحق إيـراداً
الله واثق بـــدءاً مـن صفـــوا علـنـــاً بـالفـرد نـالـوا بهـذا العهـد إسعـاداً
مـــولاى بـــايعـتـنــا والله أنـبـــأنــا ف﴿ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ فــضلاً وإمـــداداً
أنت الـوسيلـة لى أنت الـشفيع أغث صبـــاً يخـاف عـن المحبــوب إبعـاداً
لا صبر لى سيـــدى حتـــى أنعم فى قـرب بـطيبـة إحـسـانـاً وإمـداداً
نعم عيـونـى أنلنـى الـوصل متحـداً فى طيبـة أنت حبـى خير من جـادا
أسعـد بـوصلك مـشتـاقـاً له أمل قـد صـار يـا سيـدى بـالخير معتـاداً
عـــودته فى ربـيع كل مكـــرمـــة وهـــا ربـيع أتـــى والخير لى عـــادا

رمز بدئه وختمه ﷺ

فى البـدء كنت جمـال الـذات تفـريـداً فى الختـم صرت ضيـاء الحق تـوحيـداً
من نـورك العــالم الأعلى صفـا وضيـا بل منه عـالـون منه الكـون تجـديـداً
أفــردت لـلــذات من بــدء إلى ختم منك الـظهـور فـصـار الغيب مشهـوداً
يــا أول البــدء يــا روح العـوالم يـا من صـار لا شئ من معنـاك مـوجـوداً
أبـــرزت نـــوراً هـــدى للعـــاملين وفى شهــر الــربيع لـنــا أظهــرت تــأيـيـداً
بعـثـت فـيه رءوفـــاً رحمـــة عـمـت كل العـــوالم كـنـت الفــرد مقـصــوداً
يـا شمـس نـور أضـاءت فى العـوالم فى كل القلـوب فـأنت البحـر مـورودا
أنت الـوسيلـة يـا مختـار خـذ بيـدى حتـــى أشـاهــد تـوابـاً ومعبــوداً
بـالآل والـصحب والأنصـار سل ربـى نيل العطـايـا فـإنــى العبـد مجهـودا
سقمـى وشيبى اضطرارى يا أبا الزهرا فـاشفع إلى الله يـمنح وسعـة جـودا
يــــا رب واسع إحــســـــان تمـن بـه حتى أنـال الـرضـا والفضل تـوحيـداً
يا قـابل التوب هب لى التوب واغفر لى بـالـروح أيـدنـى يــا رب تـأييـداً
أسعـد بـنـى وإخــوانـى بعـاطفـة بـالمصطفـى من أتـى بـالنـور تجـديـداً

الفصل الثانى

الحقيقة الإنسانية

الحقيقة الإنسانية مخلوقة قبل أن يخلق الكون

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ الأنبياء ١٠٤، وقد بدأ الإنسان نوراً، لأنه خلق الحقيقة الإنسانية قبل أن يخلق الكون، والإنسان أول مُراد الله، وأول المُراد آخر العمل، فخلق الله الكون على أكمل إبداع وأحكم صنع، لأن الحقيقة الإنسانية اقتضته، قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية ١٣، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ لقمان ٢٠.

أطوار الإنسان السبعة قبل إبرازه فى الكون المحسوس

للإنسان أطوار سبعة يتطور فيها طوراً بعد طور بدءاً وختماً، فكان فى حضرة العلم، ثم خصصته الإرادة، ثم كان حقيقة إنسانية أمام الله تعالى بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ الأعراف ١١، والله إنما يخاطب الموجود لا المعدوم، ثم تعلقت به كُن إيجاداً للحقيقة الإنسانية أولاً التى هى الإنسان قبل بروزه فى الأعيان الكونية، ثم واثق الأنبياء لرسول الله ﷺ، ثم كان يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، ثم كان الخلاف بين الملائكة وبين الله تعالى، وكل هذه الأطوار قبل إبرازه فى الكون المحسوس.

أطوار الإنسان السبعة فى الكون المحسوس

أما الأطوار السبعة الأخرى فكان الإنسان طيناً ثم كان نطفة ثم كان علقة فمضغة فعظاماً فكُسيت العظام لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم جعل فوقنا سبع طرائق لا يصل الواصل إلى الله سبحانه إلا بمجاوزتها وهى: الحظوظ الشهوانية، ثم حب الدنيا، ثم الآخرة، ثم الرؤية، ثم الشهود، ثم الفناء عن كل ذلك بتركه، ثم الفناء عن الترك بترك الترك، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ

عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ المؤمنون ١٢-١٤.

أطوار الحقيقة الإنسانية

تطورت فى أدوار أول نشأتى ... وكنت ضياء مشرقاً فى الحظيرة
وفى سر أطوارى بيان لآله ... تحلى بمعنى غيب سدرة صورتى
أدور وفى سر التجلى تنقلى ... وحولى نور الوجه من غير حيطة
على لقد صلى وفى الغيب محتدى ... صلاةً بها أخرجت من قاف رتبتى
ولم أك فى حال التجلى بظاهر ... لغيرى وفى الأخفى تراءت حقيقتى
خفيت وفى الأسما ظهورى بظاهر ... ظهرت وفى سر البطون معيتى
وما أنا فى غيبى سوى نور مقتضى ... معانى التجلى فى خفا آدميتى
تنقلت والأسماء مشهدى الذى ... أراه بلا كيف ولا رمز نسبتى
معاليم تنزيه تلوح بلا خفا ... وأنوار تشبيهٍ بمعنى علية
فما أنا فى بدئى بلون لأننى ... بلا فصل والنور المقدس وجهتى
ولا وصل حيث الوجه بالنور مشرق ... فحجب عنى نسبتى الأولية
فكان بطونى للمعانى مظهراً ... وكان ظهورى مظهراً منه نشوتى
فلى فى بطونى مشهد بنزاهة ... ولى فى ظهورى مشهد بسريرتى
فلا الكون يحجب ما شهدت بداية ... ولا النور يحجب عن عيونى طينتى
تحيط بى الأنوار والوجه مشرق ... قبيل ﴿ أَلَسْتُ ﴾ فى خفا آدميتى
ولى مشهد من دونه العقل ساجد ... وفى ترك تركى فالجلالة بغيتى
أحن إلى بدئى الذى كنت أولاً ... به قبل أن ظهرت صوى بشريتى
حنين إلى نور الجلالة محرق ... فأواه لو منت على بعودتى
وفى نص آى ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ ﴾ إشارة ... إلى نار أشواقى ونيران حيرتى
تحيط بى الأسوار والغيب نوره ... يلوح مسعراً نار زفرتى
تحيزنى الآثار والقلب عامر ... بمن لا يحيط العرش منه بآية
وسعت أيا قلبى جمالاً مقدساً ... لقد ضاق عنه العرش أجمل وسعة

جمال العود إلى البدء

حنين إلى بدئى قبيل وجودى ... بسور العناصر فى صفا تفريدى
لدى كنت بين الحضرتين مجدداً ... بناحية التكوين ناحية الجود
تظللنى الأوصاف قبل عناصرى ... وتشتاق لى الأرواح فى التفريد
ولى وجهة للروح فى العلم أولاً ... ولى وجهة للأين فى التلمود
ولا ظل لى والعلم بثبت رتبتى ... وفى العلم كشفى صح بالمعبود
أنا العبد فى العلم اللدنى رتبتى ... أنا مظهر لظهوره التوحيدى
أرى ظاهراً فى ظل أوصافه التى ... ظهرت بها فى العلم حال عهودى
يعاهدنى فى حضرة العلم إننى ... حملت أمانته بلا ترديد
ولم أحملنها فى قيود عناصرى ... ومن آدم حملت بالتأييد
تحملتها إنى ابن آدم ليتنى ... أبيت وكنت الترب فى التحديد
لقد عرضت قبلى على الأرض والسما ... أبين احتمال أمانة التجديد
تحملتها قهراً بميراث آدم ... وتلك الجوارح فى ظلام صدودى
أيا روح قد ووثقت قبل عناصرى ... وكنت بها فى العهد حال وجودى
تحمل عقلى بل وروحى عناصرى ... أمانة ربى والرضا مقصودى
ولكنه بالفضل منه ولا أنا ... ولا حول لى يقوى بقيد جهودى
ولا شئ كنت ولا أزل كما أنا ... به قوتى والحول فضل رشيد
أقول أنا حال العبودة واجداً ... حقائق توحيد بلا ترديد
على الرضا عنه لكل مقدر ... وسخطى على نفسى فخل شهودى
أقمنى عبداً مخلصاً لك سيدى ... وكن لى رباً فى مقام شهيد

حضرة كُن

(كُن) فى الوفا مرأى عيون الروح ... ولدى الصفا أرى سنا السبوح
تجلى لقلبى فى الصفا شمس الخفا ... فى أفق أعلى بالضيا التصريح
(كن) قبل تكوينى نعم لى محتدى ... تنبى عن الأسرار بالتلويح

أخفت معالمى الأولى بضيائها ... حتى بدا الإطلاق بالتوضيح
فى (كن) أنا نور جلى مشرق ... خافٍ فلا أدرى بغير الروح
فى قبلها فى العلم كنت مخاطباً ... سرى خفى لا تفيه شروحى
أزلاً لقد خوطبت فى الأعراف فى ... آى السجود لآدم ممنوح
كشف عيان (كان) لا فى حيطة ... فى حظوة التقديس والتسبيح
العلم حيطة صورتى وحقيقتى ... والوجه نور مشرق للروح
حتى بدا عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ بحيطتى ... فيها سترت بعهده التصريح
عهد به فصلى ووصلى بغيتى ... حاشا أميل عن الضيا السبوح
فى الصفو يحلو لى اتحادى والوفا ... يحلو به التفصيل حال سبوحى

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

ميثاق النبيين

من أسرار ميثاق الرسل

خلق الله نور حبيبه محمد ﷺ من نوره، فهو العقل الأول الذى نظر الله إليه بدءاً وخلق لأجله العالم أجمع، وتجلى فيه تجلياً عاماً حتى شوهدت تلك الأنوار القدسية لأعلى عليين ولعالين، وللملائكة عمار ملكوت الله تعالى، فكان آدم مظهر شهود تلك المعانى للملائكة، ورسول الله ﷺ المظهر الأكمل لشهود تلك الغيوب القدسية للعالم الروحانى العالى والأعلى، وبتلك الجمالات نفسها زُج به فى نور القدس، ووقف جبريل الذى هو الروح الأمين دون سدرته المحمدية قائلاً: لو تقدمت لاحترقت.

واثق الله الرسل بدءاً له ﷺ فكان المواثِق (بكسر الثاء) هو الله والمواثَق (بفتح الثاء) حقائق الرسل صلوات الله عليهم، فأشهدهم سبحانه وتعالى ظهوره حقاً فى حقيقة حبيبه ومصطفاه، ليلحظوا بالعيون التى وهبها لهم محاب الله ومراضيه فيما تقتضيه تلك الحقيقة، فصارت بكمال الاستحضار معالم بين أعينهم فى طورهم الدنيوى، يمثلونها للأمم ويرسمون صورتها على

جواهر نفوس العالم، وتشرق بهم شمسه ﷺ، ولم يخل سفر من الأسفار من لدن آدم إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام إلا وتجمل بذكر اسمه، والحث على اتباعه والتوسل إلى الله تعالى بجاهه، كتم ذلك أعداء الحق من أهل الكتاب، ولكن القرآن الكريم بين لنا ذلك جلياً.

قام الله لحبيبه بدءاً، وقام حبيبه مقامه ختماً، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الفتح ١٠، فانظر بعين روحك واصغ بآذانها، احجب عن أُذن حسك وعقلك، فإن المقام فوق العقول، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

بعث الله الرسل قبله، بما لابُد لأهل كل زمان من الكمالات التى بها يكون الناس فى أمن وأمان، وعلموا بما يجب عليهم، حتى تم الدور وتأهل الناس للكمال المطلق، فأشرقت تلك الشمس الكلية بكل الكمالات التى منحها الله الرسل منه ﷺ، فكان ما جاء به الرسل قبله كمالات نابوا فى تبليغها عنه، وهو ﷺ أصل تلك الكمالات، فلما أشرقت شمسه، أشرقت بالكمال المطلق الذى يدل عليه قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ المائدة ٣.

من أسرار القرآن فى الميثاق

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ آل عمران ٨١.

قبل أن نتكلم على تأويل هذه الآية الشريفة نلمح إلى رذاذ من شميم الأرواح. معلوم أن الذى يذكر بحادث لابد وأن يكون شهده فى آية، فإذا ذكر به استحضره تمثيلاً فكان كالحاضر، لأنه مرسوم على جوهر النفس.

يذكر الله الذين أشهدهم ميثاق أنبيائه قبل عهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ الأعراف ١٧٢، كما بينه سبحانه فى هذه الآية، وهم الذين أخبرنا الله عنهم أنه رضى عنهم ورضوا عنه من أصحاب رسول الله ﷺ، بل ومن التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، ممن ورثوا تلك المكانة أو أقامهم الله

أبدالاً لرسله صلوات الله عليهم، أو أكرمهم باختصاصهم بالوراثة من مقام الرسالة، أو من المكانة الأحمدية، لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ آل عمران ٨١، أى واذكروا وقت أخذ الله تعالى ميثاق النبيين.

إشارة علية إلى أن هذا الميثاق ميثاق استجلاء لكمال الأسماء والصفات الإلهية، وهو فوق مقام عهد ﴿أَلَسْتُ﴾ الذى هو ظهور لمعانى صفات الرب جل جلاله بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ الأعراف ١٧٢، وبين المشهدين كما بين الرسول والمؤمن التابع، فهذا الميثاق برهان على علىّ المكانة الأحمدية، فإن الرُسُل بالنسبة له ﷺ أُمة وهو رسولها، وهذه المكانة هى ولايته ﷺ على جميع الرسل.

ومثال ذلك أنك ترى مجلساً جمع أهل العلم والهدى والتقوى، ورجلاً هو وليهم وهم أتباعه ينصرونه، فكذلك رسول الله ﷺ هو رسول مثل الرسل ولكنه عليه الصلاة والسلام ولى الرسل بتصريح هذه الآية الشريفة، ومعناها واذكروا وقت أخذ الله ميثاق الأنبياء كما هو صريح الآية، وإن فسرها بعض المفسرين بأنه أخذ ميثاق الأنبياء على أممهم.

﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾ ورد فى اللام الفتح وتكون ما اسم شرط جازم أو اسم موصول، وورد فيها الجر وتكون ما مصدرية والمعنى: لأجل ما آتيتكم.

﴿مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾ الكتاب هو ما أنزله الله تعالى على كل رسول مشرع، والحكمة ما تفضل الله به على الأنبياء من العلم ببيان الكتاب والعلم بمحاب الله ومراضيه.

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ والمراد بالرسول هو محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعنى مؤيد لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى، وإن خالفت شريعته شريعتهم فى فروع الفقه والمعاملات، وفى تفصيل إجمال علوم التوحيد وأسرار غيب الأسماء والصفات والحكم والآداب، فإن ذلك مقتضى بعثة خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم الذى أخبرنا الله بما تفضل به علينا بسببه لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ المائدة ٣، فإن كل رسول بُعِثَ قبله جاء به من كان قبله وزيادة، حتى أتم الله

دينه، وأكمل نعمته على العالم أجمع ببعثة حبيبه محمد ﷺ.

وهذه الآية الشريفة جاءت فى سياق بيان فضله ﷺ وإثبات رسالته لتقوم الحجة على وفد نجران من النصارى وعلى اليهود فى البيان السابق فى المباهلة والبرهان، وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ دون غيره من الأنبياء ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ ومعلوم أن ﴿ثُمَّ﴾ للتعقيب والتراخى، ولا يكون التعقيب والتراخى إلا بعد النهاية وطول المسافة.

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ اللام هنا للقسم وتؤمنن مؤكد بالنون ففيه توكيدان، وإن كانت الآية توجب على كل نبى لو بعث رسول الله ﷺ فى عصره، توجب عليه أن يؤمن به وأن ينصره، فكيف يكون الحال بغير الأنبياء من أتباعهم وغيرهم، فيكون الإيمان منهم به ونصرتهم له من باب أولى.

وفى تلك الآية من بيان قدر رسول الله عند الله ورفعة شأنه لديه جل جلاله، ما فيه مما لا يخفى على من فقه خطاب الله تعالى.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ على هذا التأويل يكون الاستفهام تقريرياً، ويكون الخطاب من الله لأنبيائه وهو تأويل علىٍّ عليه السلام وابن عباس وغيرهما من أئمة الصحابة، رضوان الله عنهم، والإصر هو العهد الوثيق المعقود على كمال الإيمان والتسليم، ﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ أى قبلنا وسلمنا بيقين.

﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أى بينوا هذا الميثاق لأنفسكم ولغيركم بالحجة، حتى تفوزوا أنتم وغيركم بما وعدت به من آمنوا برسولى محمد ﷺ ونصروه.

غوامض أسرار ميثاق الأنبياء

صلوات الله وسلامه عليهم

من البدء فى الميثاق بدء حنينى ... إليك أيا شمس الهدى التعيينى

أضأت على الأرواح فى الصفو مشرقاً ... فكنت إمام الرسل بالتمكين

فواثقهم فى البدء للفرد عوهدوا ... ومنك لقد شربوا طهور معين

فكنت بمشكاة النبيين سيدى ... حقيقة مصباح ضيا المكنون

رأتك نعم أرواحهم فتهيموا ... فكانوا هو الأمنا لحمل الدين

أنابوا عن الشمس العلية قبل ما ... تلوح على الآفاق فى التكوين

فكانوا هو المثل العلية بينوا ... مقامك بالتلويح والتبيين

نعم أنت نور الله فى نص آيةٍ ... لكل رسول بل وكل أمين

مقامك فوق العقل قدراً ورفعة ... فأظهر جمالك كى تراك عيونى

مكانتك العلياء غيب عن النهى ... لأنك ظل الله فى التعيين

لقد واثق الله النبيين سيدى ... لينتظموا فى حصنك المأمون

فكنت إمام الرسل بدءاً وخاتماً ... ومبناك للأمناء حصن حصين

ومعناك يا خير النبيين غامض ... عن الروح فى غيب الخفا المضنون

ظهورك فضل الله رحمته لنا ... هو الشمس قد لاحت بأفق مبين

ومن فوق أيدينا يد الله سيدى ... لدى بيعة الرضوان حق يقين

أحن ومن بدء حنينى ولهفتى ... إلى نورك القدسى لا للعين

أيا رحمة الرحمن يا نوره الجلى ... تعطف بوصلك للفتى المسكين

أمد معنى منك بالروح سيدى ... وفى طيبة نعمه بالتعيين

لك الجاه عند الله يا نور قدسه ... توسلت كن لى منجدى ومعينى

فقد زاد هيمانى إليك تولنى ... فأنت بنا أولى صريح الدين

رءوف رحيم سيدى ووسيلة ... لنا نظراً قد طال فيك حنينى

أحن إلى روض بطيبة مشرق ... لأحيا مهنى فى مقام مكين

ألا نظرة يا سيد الرسل بالصفا ... بها أشهد النور الذى فى نون
بها أتهنى فى جوارك آنساً ... بوجهك فى روض الرضا المأمون
لقد طال تحنانى وأنت وسيلتى ... إلى الله أدركنى وخذ بيمنى
بجاهك عند الله أسأل موقناً ... بنيل الذى أرجوه من كينون
وفى ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ أولاك ربك ما تشا ... تدارك رسول الله أهل الدين
صلاة على الغوث الشفيع محمدٍ ... بها نعط حسنى منعم ومعين

* * *

الفصل الرابع

يوم ألست

من أسرار يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

الحق تنزه، إنما تظهر تجلياته للأرواح التى صفت أجسامها عن التعلق بالأغيار، وهو سبحانه قد ظهر لها مظهراً مطلقاً عن التقييدات، باسم له الحيطة على جميع آثار الأسماء وصفاتها فى مقام ﴿أَلَسْتُ﴾، ثم قيد هذا المظهر المطلق بما تجملت به حضرة العوالم الناسوتية، من معانى ما أفاضه عليها، فمالت الأرواح المجردة إلى شهود ما تجلى لها فى هذا المشهد العام المطلق، وعند هبوطها من أوج الرفعة إلى حضيض السجن الآدمى، عرجت بالميل الشديد إلى هذا الجمال، فتقيدت بما مال إليه هذا السجن وهيأه لها، وأيقنت أن هذا هو عين ما شهدت، وغفلت عن عهود الارتباطات المظهرية التى أخذت عليها منها عند التلذذ بسماع الحقيقة السرية ينادى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢.

ولما أن تجلى الحق سبحانه بصفات الجمال الإلهى، الذى نشأ عن دائرة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ الأعراف ١٥٦، نبه الأرواح تنبيهاً مقيداً بنداء (ورحمتى سبقت غضبى) برمز خفى فى الظاهر مكشوف بالباطن، تسطع أنواره على الأرواح، فتكاد من شدة الميل إلى هذا المشهد أن تمزق هذا السجن، ولما كان ولابد لشهود الحقائق المجلوة عن الذات المقدسة بتجليات

الأسماء والصفات فى آثارها، كان للناسوت سر يتوقف عليه الكمال الكونى ليثبت ما تقرر فى الذكر الحكيم ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الذاريات ٥٦، مفسراً بما وضح من: (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى) تنزل جل جلاله تنزلاً حنانياً ودادياً، فجمل أولى العزم بكشف ما تجمل به هذا النوع الكامل فى الجنس لدى حضرة المجلى الذاتى، فملك جميع عوالم ناسوتهم لعالم لاهوتهم، فأداروا تلك العوالم الناسوتية، على طبق ما تعلقت به حضرة تجليات الأسماء والصفات عن الحكم السرية، ليرى ويسمع ويذوق ويحس من مال عن تذكر حضرة سماع الخطاب فى مقام ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، وتظهر تلك الأوصاف الجمالية والأنوار الملكوتية عن الميل إلى غير ما هى له، فتتحول إلى أصلها، وتميل إلى تلقى الأسرار بشوق شديد، وعزم أكيد، فيكشف هذا الكمال عند شروق شمس تقوى اللاهوتية على الميول الناسوتية بما مالت إليه، ويبث الحقائق ويزيل الحجب.

ولذلك فإنه لم يأت نبى ولم يبعث رسول إلا ويبتدئ دعوته بتطهير القوى الناسوتية من الخصال الوحشية وأخلاق البهائم، وبعد ذلك يفك طلاسم الأقفال عن شموس الحقائق، وهذا هو السر الذى انتظم به الكون. ولما كانت الأنوار المحمدية قبلاً وبعداً نسخت كل شريعة بارتفاع مشرعها، لأنهم نواب عن حضرته، منتظرون لظهور أنواره، ولو ثبتت شرائعهم لم تتحقق النيابة المطلقة، ولم يظهر سر: (فقبضت قبضة من نورى) ولا انجلت دقائق العهود المأخوذة على المرشدين من قِبَل الذات عندما عاهدهم ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ آل عمران ٨١.

ومثبوت أن النيابة قبل ظهور شمس عوالم ناسوت هذا الأصل الأعظم، يلزم أن تكون بنور الوحى الإلهى، كل بحسب ما اغترفه من هذا البحر النورانى، وما شربه من هذا الشراب المحمدى، فكان الأمر كذلك بالوحى، ولما تجلت شموس المسرات على جميع العوالم بأسرها بظهور هذا الناسوت، أفيضت الكمالات الإلهية على جميع عوالم المادة من رحيق ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ آل عمران ١١٠، ومكثت تلك الأنوار تلمع من هذا الأفق العظيم، والأسرار من هذا البحر العميم، على النجائب الروحانية المعززة بالفتح المحمدى،

المحفوظة بالإلهام الإلهى، على قلوب نواب حضرته، فكانوا فى الحقيقة كنوابه السابقين بحقيقة (العلماء ورثة الأنبياء).

ولما كانت الدعوة به كان المرشد الكامل النائب عنه بعد ثابت القدم فى دائرة ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ﴾ الفتح ٢٩، مرفوع الرتبة بحكم الوراثة الأكملية، فلا يكون المرشد كاملاً إلا بعد تحققه بهذه الوراثة، وهذا هو سر الدعوة إلى الله تعالى، فافهم وتأمل، والله أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

نعم من ﴿أَلَسْتُ﴾ شاهد القلب مولاه ... دعاه إلى التوحيد بالصدق لباه
تجلى لنا بـ﴿أَلَسْتُ﴾ بالنور ظاهراً ... وأشهدنا جهراً ولاح ضياه
عشقناه لما أن تجلى بوجهه ... سقانا طهور العشق صرف حمياه
ولما تجلى للنفوس بنوره ... تنزل بالإحسان جل علاه
شهدنا جميلاً بالعواطف ... لقد جذب الأرواح نور بهاه

يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ ويوم الموعد

قال تعالى: ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ الكهف ١٧٢، خلق الله العالم أجمع، ليظهر جل جلاله بآثار قدرته وعجائبها، وأسرار حكمته وغرائبها، واقتضت حكمته جل جلاله أن يظهر فى أول الخلق أمام الأرواح، ظهوراً بلا حجاب، يأخذ إقرارات خلقه على أنفسهم بقوله سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، فأقروا واعترفوا بأنه جل جلاله ربنا، بقولنا جميعاً ﴿بَلَىٰ﴾، ثم إنه جل جلاله عاهدنا لعلمه أن تلك الأرواح المجردة، إذا لابست الأجسام المحدودة ظللتها بظلال سفلها، فأنستها عهد ربها جل جلاله، أو سترتها بظلمات حظوظها وأطماعها فتناست هذا العهد، فقدر جل جلاله أن يعيد من نسى، أو تناسى إلى ما كان عليه من الصفاء إقامة لحجته، فكان ما أراده جل جلاله، وتحقق العالم بحقيقة أنهم عبيد الله، وأنه الرب المبدئ المعيد، وقامت الحجة بالنسيان أو التناسى، فاستحقوا بذلك ما حكم به عليهم فى الدنيا، على ألسنة

رسله صلوات الله وسلامه عليهم، من انتقام بالخلود فى النار، أو من عقوبة للتطهير، أو من عفو ومغفرة، مُقرين أن ذلك عدل منه.

وأما من سبقت لهم الحسنى، فإنهم عند ربنا لا يمرون على صراط، ولا يرون ناراً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١-١٠٣، وهذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى، يبين ما تكون عليه حال من كفروا بالله، وكفروا برسوله ﷺ، أو من آمنوا وخالفوا وصايا رسول الله ﷺ، فأما من كفروا بالله فيخاصمهم بقوله: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ الكهف ٤٨.

سماع الخطاب المقدس يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

أغمض عينك عن نفسك، وعن كل غير الله تعالى، فإنك فى هذا المقام تحترق صفات آدميتك بنار القرب من الله تعالى، وهذا هو مقام حال الغيبة الذى أخرجك به الله من ظهر آدم ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ الأعراف ١٧٢، وأهلك لسماع خطابه المقدس، وخصك بلباس التوحيد، وحلة المشاهدة، وكلما كنت غائباً عن نفسك، كنت حاضراً مع ربك وجهاً لوجه، لكن إذا حضرت مع صفاتك، كنت غائباً عن معية الله تعالى، وحيث كان ذلك كذلك، فحضورك هلاكك، وهذا المعنى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الأنعام ٩٤.

والمتمكن يرى أن الغيبة والحضور اصطلاح لمقامين، ولو اختلفا لفظاً إلا أنهما اتحدا معنى من كل الوجوه، فالحضور هو حضور القلب، ليكون علامة على اليقين، حتى يكون ما هو غيب محض عنه فى قوة ما هو مشاهد له، والغيبة هى غيبة القلب عن كل ما سوى الله تعالى، حتى يكون غائباً عن نفسه، وغائباً عن غيبته، وبذلك لا يعتبر نفسه، وعلامة ذلك حال صادق لا يخرجه عن حكم الرسوم، فهى فطرته، وهى كالعصمة للأنبياء، من كل ما يخالف الشرع، لذلك كانت غيبة الإنسان عن نفسه حضوراً مع الله، والعكس بالعكس، والله تعالى هو المسيطر على قلوب بنى آدم، فإذا قهرت الجذبة الإلهية قلب طالب، كانت غيبة قلبه

متساوية بالحضور مع الله تعالى، وانمحت الشركة والقسمة، وانتهى النسب الذى يدلى لنفسه.

﴿أَلَسْتُ﴾ موطن الأبرار

هى الوطن المحبوب للأبرار ... وقبل ﴿أَلَسْتُ﴾ موطن الأخيار
إليه حنين العارفين وشوقهم ... ولم يحجبن عنهم بذى الآثار
وكن مطلب الزهاد جدوا لنيلها ... وكان مراد الفرد للمختار
وكون الفنا للغافلين تهيموا ... بزهرته حتى رموا فى النار
رأوه لهم وطناً فجدوا لنيلها ... فحجبوا عن الآيات والأنوار
وأهل الصفاء القدس لهمو مطية ... فساروا به لحقيقة الأسرار
أبوا أن يروه منزلاً فتجردوا ... عن الحظ فى طلب العلى البارى
إلى الله ساروا والكيان مطية ... وقد واصلوا الآصال بالأسحار
رأوا زينة الدنيا وبهجة أهلها ... سراباً وليست عندهم بقرار
أقاموا بها غرباء والحق أنسهم ... على الشرع بين الفكر والأذكار
بأرواحهم فى حضرة القدس متعوا ... وأبدانهم فى الكون والآثار
تكشفت الدنيا لهم عن مآلها ... فلجأوا إلى التواب والغفار
رأوها غروراً زائلاً فتجنبوا ... معاملة الجهلاء والفجار
نعم عاملوا مولاهمو بقلوبهم ... وسلكوا سبيل مناهج الأخيار
فصافاهمو مولاهمو واصطفاهمو ... لحضرته وحباهمو بفخار
به أنسوا فى كل ما هو ظاهر ... من الآى والآثار والأطوار
فهم معه فى كل حال وهم به ... شموس هدى فى أفقه للسارى
وهم أنجم وراث طه تلألأت ... بهم وجه التشريع كالأقمار
ومن يده شربوا طهور شرابه ... مواجهة فضلاً بلا أستار
عليه صلاة الله فى كل لحظةً ... صلاة بها نحظى بكل فخار
وآلٍ وأصحاب كرام أئمة ... ومن ورثوا الأحوال بالأنوار

من أسرار القرآن فى ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢، واذكروا وقت أخذ ربك ذرية بنى آدم من ظهروهم، ووقت إشهاده إياهم على أنفسهم قائلاً سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى أخذ من ظهر آدم ذريته الأنبياء وواثقهم على أن يبلغوا عباده ما بعثهم به، وهذا هو ميثاق الأنبياء الذى سبق أن واثقهم به فى عالم النور لنصرة خاتمهم ﷺ، ثم أخذ من ظهر آدم ذريته وذرية ذريته إلى يوم القيامة كالتوالد سواء بسواء، ولم يقل يأخذنا من ذرية آدم، بل قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ لأن ذلك معلوم، والعودة إلى قوله: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ يبين أن الأخذ كان كالتوالد، وكل مخلوق من بنى الإنسان أخذ من ظهر أبيه كالذر، إلا أنهم يعقلون ما يخاطبهم الله تعالى به، فكشف الله الحجاب لهم عن جماله العلى حتى شهدوا بإشهاده تعالى لهم، وبعد أن أشهدهم أقام عليهم الحجة الاعترافية بقوله تعالى فى خبره عن قولهم ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا﴾ وبعد كشف الحجاب قالوا: ﴿بَلَىٰ ۛ﴾ أنت ربنا لاشك، ولسابق علمه جل جلاله فيهم بأنهم إذا لابست أرواحهم أشباحهم أنستهم لوازمهم الكونية وحظوظهم وملاذهم هذا المشهد الربانى فأخذ عليهم العهد والميثاق بقوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ أى: احذروا أن تنسوا هذا المشهد العلى الجلى الذى اعترفتم فيه بربوبيتى لكم، فإذا جئتم يوم القيامة وسألتكم عن هذا المشهد تعتذرون إلى فتقولوا ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ فإننى لا أقبل بعد هذا الشهود عذراً.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٣، وهذه الآية حجة قائمة على أنه سبحانه لا يقبل عذر معتذر بعد هذا الدليل الواضح، ومعناه احذروا أن تعتذروا لدى يوم القيامة بقولكم: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أى قبل وجودنا وكنا ذرية لهم من بعدهم فوجب علينا بحسب العادة أن نقتدى بآبائنا.

قوله تعالى: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أى أتهلكنا فتدخلنا نار جهنم يوم القيامة بفعل آبائنا الأولين الذين أشركوا بك من قبل وجودنا، وهذا اعتذار لا يقبل، لأن الله تعالى جمع الآباء والأبناء جميعاً فى صعيد واحد، وكشف الحجاب عن جماله، وأشهد الكل بعيونهم، وخاطبهم جميعاً بقوله: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فأقروا بربوبيته جل جلاله بعد العيان لا البيان.

وهنا سر خفى، وهو أن جميع بنى الإنسان شهدوا واعترفوا وزادهم الله فضلاً منه بأن بعث فيهم أنبياء ورسلاً ذكروهم بهذا العهد الأزلى وعاهدوهم عهداً ثانياً، فمن آمن بالعهد الثانى نفعه الله بالأول والثانى، ومن كفر بالعهد الثانى أهلكه الله بالأول والثانى، ومن هذا يظهر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم، أقامهم الله تعالى يذكرون عباده عهدهم الأول، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الذاريات ٥٥، ولا تكون الذكرى إلا بما عرف ثم نسى لطول المدة، ومن ذكر فإن عهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ يكون حجة له، لأن الجميع قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ وقولهم: ﴿بَلَىٰ﴾ ابتلاء عظيم من الله، لأنه سبحانه جمع لعباده فى هذا المشهد جميع ما أراده لهم من سعادة، فمن قال: ﴿بَلَىٰ﴾ وسبقت له الحسنى قالها بقلبه ولسانه، ومن قال: ﴿بَلَىٰ﴾ ولم تسبق له الحسنى ولكن سبقت له السوءى كان هذا المشهد حجة عليه يوم القيامة، ومثال ذلك أن يعترف الرجل بما عليه من دين لرجل آخر، ثم ينكره عند حلول أجل السداد، فإذا ذكر به لا يذكره، وإذا استحضر لم يستحضره، والله تعالى جعل عهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ لإقامة الحجة، وأعقبه بعهد الرسل لبيان المحجة، فمن ذكر بهما فذكرهما فر إلى الله ربه بقلبه وقالبه، لأن الذكرى نفعته وزادت فى إيمانه وكشفت له مشهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ واضحاً جلياً، فشاهده مع إخوانه من أهل السابقية، وليس لمنكر حجة على الله، لأن قضاء الله وقدره محجوبان عن البصائر قبل الأبصار، والسابقة والخاتمة مجهولان للمؤمنين قبل الكفار، وهذا هو الأمر الذى أذاب قلوب الأبرار، وحثهم على القيام بفرائض الشريعة ونوافل السنة ليل نهار، كما أخبرنا الله العزيز بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾ الفرقان ٦٤، حتى إذا أصبحوا من بياتهم دعوا الله تضرعاً وخفياً ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ الفرقان ٦٥، وذلك خوفاً من سلب الإيمان لجهلهم بما ستكون عليه السوابق والخواتيم.

لا ينفع الإنكار مع قيام الحجة

قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف ١٧٢، معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يواثقهم بعد أن أحضرهم فأشهدهم على أنفسهم وكشف لهم الحجاب فرأوا جماله العلى، ثم خاطبهم بكلامه المقدس قائلاً: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ فأقروا جميعاً بقولهم ﴿بَلَىٰ﴾، بعد أن جمع الله لهم مرادهم منه سبحانه الذى قدره عليهم أزلاً، ثم أكد هذا المشهد وقواه بالميثاق بقوله: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ أى: أعاهدكم لئلا تقولوا يوم القيامة عند حسابكم جزاء إنكاركم ﴿إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ أى: ساهين ﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أى: أن تقولوا معتذرين أمام الحساب إنما أشرك آباؤنا من قبلنا وكنا فى الدنيا ذرية لهم، مقتدين بما كانوا عليه، متمسكين بما ورثناه منهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون "الهمزة" للاستفهام الإنكارى ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا﴾ أى: تعذبنا عذاب إهلاك كما أهلكت آباءنا الأولين الذين أبطلوا الحق وابتدعوا غيره بأهوائهم المبطلة، وهنا قامت حُجة الله البالغة ببيعة الرسل الكرام مذكرين لهم هذا العهد الأول، فبطلت حُجة القوم ونفذ مراد الله تعالى فيهم عدلاً، لأنه عاهدهم سبحانه فى مشهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ وأرسل إليهم رسله عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمۡ لَا يَنطِقُونَ﴾ النمل ٨٥.

حقيقة الحياة فى ﴿أَلَسۡتُ﴾

حياتى فى ﴿أَلَسۡتُ﴾ هو انفصالى ... ومحتد نشأتى نور المجالى
حياتى فى صفا (كُن) بدء وصلى ... وجمع حقيقتى حيث اتصالى
حياتى فى ضيا العلم غيب ... به أنا غيب غيبٍ فى الجمال
حياتى مقتضى النعموت كنز ... به المجلى يلوح على النوال
حياة مسرتى فى قدس مجدٍ ... أنا الروح العلى بلا انفصال
بها أنسى وكم ووجهت فيها ... بأنوار البها بصفاء حالى
أحن إلى الحياة حياة بدئى ... وقد حُيِّزْتُ فى كون الخيال
وأنسى بالحياة قبيل كونى ... له أشتاق والبشرى توالى
وحتام الحنين ووجه ربى ... إحاطته تبين لى وصالى

أحاط الوجه بى والشوق ينمو ... عجبت وقد أعدت به لعال
أيا بدئى وكونى سور رسمى ... هل الأسرار قد أبدت ظلالى
ومالى والحنين وقد تراءى ... جمالى أولاً بضيا مآلى
أللأنوار فى الملكوت شوقى ... أم الشوق العلىُّ لذى الجلال
أعدت به لبدئك فى شهودٍ ... فما هذا الحنين مع الوصال
أحن إلى اتحادى فى انفرادى ... بلا حجبٍ بفصل واتصال
أرانى ثانوياً فى اتصالى ... لأن الوصل نسبة كل خال
وما وصلى وفى وصلى انفصالى ... وقد جاوزت رتبته بقالى
لغيب الاتحاد لنور شوقى ... أكون به له فيه بحالى
أغيب فى وجودى عن شهودى ... فيَسْتُرُنى ويظهر بالكمال
لديها لا أحن لغير ذاتى ... وشوقى بى إذا غيبى بدا لى
يقدس بى مكان كنت فيه ... تبارك نار منزلتى مثالى
وما حولى يبارك بانفرادى ... وتفريدى به محوى حلالى
بدت أحدية بضيا بهاها ... وكان (بكن) بدا كل الرجال
و(كان) نعم مرادى فى انفرادى ... و(كن) جاوزت رتبتها بوال
وكنت أحن قبلاً للتجلى ... وقد لاحت ﴿أَلَسْتُ﴾ بلا ظلال
ولم يفن حنينى واشتياقى ... إلى قدس الجلالة والجمال

جمال التجلى يوم ﴿أَلَسْتُ﴾

ما حياتى الأولى بيوم ﴿أَلَسْتُ﴾ ... إذ تجلى وقد دعا وسمعتُ
هى مبدأ نشأتى واتصالى ... كيف هذا وقبلها قد علمت
كان منها فصلى وكنت ضياء ... ظاهراً قبلها به أشرقت
عند مجلى الصفات كوكب درى ... مثلى النور والمعانى شرحت
كوكب مشرق بأفق المجالى ... وحوالى كمال ذاتى طفت

ميزت رتبتى فلاحت رسومى ... قيدت نسبتى وتلك ﴿أَلَسْتُ﴾
كنت قبل العهود فى غيبِ غيبٍ ... لا أرانى وكم لأصلى شهدت
أخفت السر بالعهود وشأنى ... صار شأن التحديد منها حجبت
آه لولا العهود لاحت معانى ... تمحق الثانى الذى قد رأيت
من أنا غيرها وما ثم غير ... وأنا الغير وى كأنى جهلت
يا ﴿أَلَسْتُ﴾ من الذى قد تجلى ... آه لو أننى بسرى أبحت
صار وصلى فصلاً وفصلى مشيراً ... وابتدا الفصل يا نديمى ﴿أَلَسْتُ﴾
حجبتنى الغيوب قبل انفصالى ... وبنور الأسماء منها حجبت
كان عهدى فصلى وكيف اتصالى ... بعد أنى عبدٌ بذلى رفعت
ما اتصالى بعد انفصالى إلا ... باحتجابى عن كل ما قد شهدت
بفنائى عنى به ووجودى ... بمعانٍ بها له جُملت
وبقربى لا باقترابى وعلمى ... وبسلب الظلالِ حتى فقهت

الفصل الخامس

آدم عليه السلام

من المضنون

أجْلَى فيك ما به التعريف لو فقهت، ومنحك نوراً به التعرف لو علمت، كما منحك أن تراه فيك وفى الآفاق، بما اقتضته أسماؤه من الأخلاق، فكنت مظهراً لظهوره، أمرك لتُظْهِر مقتضى حكمة إيجادك، وهى ظهور عبوديتك، ووفقك لتكون خليفة عنه فى الملك الصغير، وسيداً وجيهاً متصرفاً فى الملك الكبير، فأظهر صفاتك للعالم بك فيك، وأعد لك فيك وفى الآفاق من المشاهد العلية ما لا يبلغ ذوقه الكروبيون.

وأن تدرك منه سبحانه ما ذقته فيك وفى الآفاق، وما فوق ذلك من الكمال مما تذوقه فى شئ من غيره فذلك ما لا تدرك، لأنك لم تذقه، والذوق فوق العلم، ولن يدركه أحد من العالمين، فإننا إنما ندرك منه سبحانه ليس بنا ذاتياً، وما ليس لنا ذاتياً يقتضى سوانا، والسعادة والشرف الذى حصل لنا هو به سبحانه ليس بنا ذاتياً، وما ليس لنا ذاتياً يقتضى الشكر، ومن جهل فغره أنه مخلوق باليدين، وأنه مظهر وظهور لتظهر صفات الربوبية، ونسى أنه مظهر أيضاً لظهور صفات العبودية، حرم ذلك الملك الكبير، ورد إلى أسفل سافلين السعير، فتفضله بالإيجاد موجب لشكره، وإحسانه إلينا بخلقه لنا بيديه، ونفخه فينا من روحه، وإقامتنا للخلافة عنه سبحانه موجب لعبادته ودوام الرهبة منه والخشية.

الأمانة هى ما فيك من أوصاف باريك

بما فى من نورِ الجميل جهادى ... وأنسى به حجبى وطول بعادى
هو الداءُ أردى من رآه لنفسِه ... فأنساه سر وجوده الإمداد
لما فى منه سخر الكون كله ... ليشهد هذا الكون غيب الهادى
ولم يك لى بدءاً لفخر ورفعةٍ ... ولكن لأنظم فى عقود ﴿عِبَادِى﴾
أيبطرنى ما فِىَّ منه ونشأتى ... تبين لى بدئى وقرب معادى

تحملت أسرارَ الأمانة مبدءاً ... وطينة فخار بها إيجادى
وإن أَنْسَ ما الأشياء لم أنسَ نشأتى ... من الماء إيجادى بلا أضدادى
نعم فِىَّ نورٌ أسجد العالمَ العلى ... وسخر لى الأكوانَ بالإعداد
ليُعرف جل الله رباً وقادراً ... وأعرف عبداً فى عظيم جهاد
فلا نوره فى هيكلى موجب علا ... ولا وصفُه نيلى به إسعادى
أمانتُه حملتها ليلوح لى ... إلهاً علياً فى الجمال البادى
وأسجد لى الأملاك كيما أرى أنا ... به فى عبودة خاشع ومراد
فإن أنسه كنت الظلومَ ونائياً ... وكنت جهولاً بالضيا الإرشاد
أمانته داء دواء وسرها ... خفى عن الأملاك والأفراد
أعوذ به منه ظهوراً بهيكلى ... وأسأله وصلاً إلى الآباد
وأبرأ مما فى منه مسارعاً ... إلى رتبتى عبداً بفضل وداد
وأن تشهد الروح التى هى نوره ... حقيقة بدئى فيه بالإمداد
لأشهدنى فيه بنور عبوديتى ... وإن لاح فِىَّ الغيبُ للوراد
ويمنحنى الجمعَ الحقيقى فارقاً ... إلى حضرة الزلفى لقومى حاد
يعين على حفظ العهود وحفظ ما ... بذاتى منه كى يصح قيادى

الإنسان شجرة ربه

الجنة الآجلة ثمانى درجات، ومفاتيحها جوارحك المجترحة والقلب وجنوده. ولما كان آدم هو المخلوق الذى تجلى فيه الحق لخلقه كما ورد، أدخله فى الجنة التى فيها مسرات الحس، ونعيم الجسم، وغذاء الروح من الحكمة، ومحبة الله تعالى، ليشتاق إليها بعد رده، وتلك الجنة هى طبقة من الفردوس بدليل قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ التين ٥، وبدليل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ طه ١٢١، ومعلوم أن الجنة لا تقع فيها المعصية، فقدر الله المعصية على آدم فى الجنة، ليرده عنها عدلاً، بعد أن أدخله فضلاً، وليعلمه أنه أخرجه منها بذنب فكيف يدخل فيها من عصاه فى الدنيا، وليشجع خلقه على التوبة عند وقوع المعصية.

وقد بينت لك أن الله غرس الإنسان بيده فى جنة عدنه، فالإنسان شجرة ربه، وهو

السدرة التى رأسها مغروس فى العرش، وأطرافها مدلاة على الجنة، وتلك الشجرة التى هى صورة الحق لها ثمر هو جمالها الذى يجب أن يحفظ لزارعها سبحانه، فإذا تجاوز الإنسان حد العبودية وتناول ما هو خاص بربه، عصى وغوى لحكمة بينت لك بعضها، فرد إلى الأرض ليرتقى إلى مقامات القرب، وليتجمل بجمال الخلافة، فيكون مرآة لظهور معانى صفات ربه، وحقيقة هى مظهر لظهور صفات نفسه، وهى العبودية، واسمع وسلم إن لم تذق، فإن من حُرم التسليم والذوق حُرم الخير كله.

أودع الله أمانته فى آدم، فنسى آدم ونسب لنفسه ما ليس له، فكان ما كان من ظهور سوءته ومن شدة وجله، والله على أمره، قال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ الأنبياء ٣٥، وإنما أكل آدم ما فيه من أمانة باريه، منحنا الله الذوق وجملنا بالشوق وحفظنا من الإنكار، إنه مجيب الدعاء.

سر أكل آدم

من أنا قبل الظهور أنا الجمال ... فى سرادق مجده قدرى مثال
أسجد الأملاك فى جنته ... أسكن الرسم لديه فى ظلال
ويح نفسى قد نهانى عن أنا ... صار أكلى البعد عنها فى وبال
قد أكلت ثمار سدرتى التى ... كانت الصورة فى حال الوصال
وى وعدت لأصلى الدانى الذى ... صرت فيه فى شقاء فى اعتدال
تبتُ تاب علىَّ جل جلاله ... أشهد الحكمة فى رمز المقال
حبه فى الأمر والنهى إذا ... قمت بالأمر وخالفت الخيال
وأنا المقهور أفعل ما يشا ... عبده والعبد فى حصن العقال
فى جهاد النفس وهى أبية ... حفظه بالفضل منه قد ينال
وى وفى رسمى غوامض غيبه ... كنزه الأعلى يفك بلا انفصال
يظهر الظاهر للروح يرى ... أشرقت شمس الجميل بكل حال
حبه يوليه منه منةً ... لأولى القرب فيعطون الجمال
أظهرت لى الغيب فى نفسى وفى ... تلكمو الآثار من قبل السؤال
حيث قد أبدعتنى لك صورة ... تشهد الأعلين غيبك فى انفصال

الأمانة

الأمانة وما أدراك ما الأمانة؟ غيب مكنون عن الروح به مضنون، أشفقت السماوات والأرض أن يحملنه خوفاً من التكليف، وقد فازت بالتعريف، وخشية من الظهور فى البطون، ومن البطون فى الظهور.

الأمانة هو ما حملته أمانة لديك، ليس منك ولا فيك، ولكنه منه جل جلاله، والذى يصل إليه يفوز بالحظوة لديه، ولأجله أُمرت بالرياضات، وكُلفت بالمجاهدات، ليحصل لك التوجه الذى به تواجه.

إذا أمكنك أن تدفع الواردات عن القلب بذكر اللسان فى منزلة الإنسان، وأمكنك أن تذكر بالقلب مع إمساك اللسان، وأمكنك أن تذكر بالقلب واللسان حضوراً وغياباً، لديها يظهر لك فيك، وتقع العين على العين بلا بين.

أحب ما فيك منه، فهو المحبوب جل جلاله له لا أنت. وأحببه بما فيك منه، إذا تجردت من مقتضيات عناصرك.

بالأمانة كلفت وعرفت، وهى الثواب والعقاب، إذا راق الشراب، وكشف الحجاب عن بديع جمال الجناب.

محل الأمانة هو القلب الذى هو عرش الرحمن – لا الشكل الصنوبرى – المقلب فى الأكوان، حملها الإنسان فكان ظلوماً جهولاً حتى يحملها، فيكون محمولاً لا حاملاً، وإشراقاً لا مشرقاً، يصفو اللطيف من الكثيف، ويحمل اللطيف بنوره هذا الكثيف، فيكون الإنسان الكامل – وهو فى سافل المكان – فى أعلى مكان.

يرى بما فيه من الأمانة وجه الله حيث ولى، ويلحظ بسره غيب القدس الأعلى حيث صلى، إذا لمع وميضها أخفى السور والرسم ومحا الوسم، وألبس المحمول تاج الخلافة عن ربه، وساح فى ملكوته الأعلى فأشرف على قدس عزته وجبروته.

الأمانة وما أدراك ما الأمانة؟ نور معانى الصفات فى مرآة صقلت بالمواجهة، وجملت بالمنازلة، فظهر الغيب المصون، وخفى المشهود بالعيون.

بالأمانة القرب والحب، إذا وفا فصفا حاملها، والوفا الاتباع مجاهدة، والصفا الاصطلام مواجهة، وهما واحد وإن وكانا اثنين، إذا زال الرين وأشرقت أنوار العين على العين، وانكشفت حقائق الأشياء بحقيقة الاستجلاء.

هى الأمانةُ أوصاف وأخلاق ... بها الحنين إذا ما لاح إشراقُ
إشراقُها حضرة المحبوبِ يُظهرها ... فيشهدُ الغيبَ أفرادٌ وعشاقُ
هى الأمانة فوق العالمين عُلا ... يُجْلِى غوامضَها فى القربِ خلاقُ
الرُّوحُ ظِلٌ لها تُبدى محاسنها ... بها يصح الصفا والوصول إغراقُ
أنوارها أصعقت أهلَ الصفا جَذَبَتْ ... أهل الفنا ولهم فى الحب إشفاق
قد أسجدت لأبى الإنسان عالمه ... غيب فلم ترها روح وأحداقُ

الإنسان صورة الرحمن

قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠.

الإنسان هو العالم الأكبر، فظاهر القلب عرش الرحمن، وباطن القلب بيته المعمور، فإذا عمره سبحانه بشهود معانى صفاته فيه، كان سدرة المثل الأعلى وزجاجة المثَل – بفتح الثاء – العلى، وكان الهيكل صورة الرحمن، ويكون الكون كله صورة هذا الإنسان الكامل، محل استجلاء معانى الصفات، فظهر به الجمال والجلال ظهور الحقيقة لا المثال، وتشهد ذلك أرواح الحافين بالعرش، ونفوس المهيمين فى العرش، حتى يعم كل تلك الأرجاء نور الشمس، فيكون نوراً على نور، فى الغيبة والحضور، من هذا القلب المعمور تعرج أسرار البطون إلى السقف المرفوع – رأس الهيكل الكامل – وتتشعشع تلك الأنوار على الرق المنشور – ظاهر الهيكل – ومتفجرة ينابيعها من البحر المسجور – سويداء القلب – فتسخر العوالم علواً وسفلاً للسدرة المغشاة بغيوب التجلى، وتسارع أرواح عالين وأشباح

أهل اليمين لخدمة هذا المظهر، من حيث الظهور فيه لأن الله مواليه، وهذا سر ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠.

حكمة سجود الملائكة لآدم عليه السلام

رمز آدم عجيب جداً فوق جميع الرموز، لا يتحقق وصول فرد من الأفراد إلا بعد أن يفك له رمزه، لأنه الجامع لكل الحقائق من العوالم، والوسط بينها، والصورة الكاملة للرحمن المجملة بجمال الخلافة عن ربنا جل جلاله، ومن تناول من شراب قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ الحجر ٢٩، وشم عبير قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠، وفقه المحبة فى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ ص ٧٥، بعد قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يس ٨٣، وقوله سبحانه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الملك ١، يعلم أن آدم رمز الرموز، بل وكنز مضنون به على غير أهله. رب معترض علينا يقول إن الله تعالى قال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ الذاريات ٤٨، فأجيبه غير لائم عليه بجهله بمتن اللغة العربية أن لفظة "أيد" ليست جمع "يد" بل هى مصدر آد يئيد أيداً، وأيد فى الآية الشريفة "قوة" أى والسماء بنيناها بقوة.

آدم وما أدراك ما آدم، خذ منى بالإشارة وسلم: إن أعلى عليين بالنسبة لله تعالى كأسفل سافلين، وهو فوق العرش، كما هو فوق الثرى، وهو رب العرش العظيم، كما هو رب الثرى، والعرش والثرى سواء فى جناب الله تعالى، وكما أن الثرى ما جانسه، ولا لامسه ولا جسه، فكذلك العرش، ولكنه يعظم ما شاء إحساناً وإكراماً، قال تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ البقرة ١٢٥، وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ص ٤٥، وقال جل جلاله: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ ص ٤٤، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ آل عمران ٣٣، ولم تكن حقيقة من تلك الحقائق تستحق شيئاً من ذلك. اقتضت حكمته سبحانه أن يكون ذا الفضل العظيم، والله يحفظ لكل رتبة من الوجود مكانتها، التى بها تكون مقهورة مربوبة، أبدعت بعد العدم، وأوجدت بعد أن لم تكن.

من عوالمه عمار ما فوق العرش وهم الآلهون لعظمته تعبداً وذلاً، وما دونهم من عوالم الروحانيات العاليات من الكروبيين الذين هم فى عظيم الكرب رهبة وخشية من جلاله

وعزته، وما دون ذلك من الحافين حول العرش المُسبحين بحمده المستغفرين للمؤمنين، وغيرهم من الملائكة عُمار سماواته من السفرة البررة، ومن المستنسخين لكتابة قدره، والقائمين بتبليغ رسالته، والحفظة الكرام وغيرهم من السائحين فى الأجواء والقائمين على الأرجاء، وغير ذلك من الأفلاك المنتثرة بسفاح السماء، التى أظهر الله بها عجائب حكمته، وغرائب إتقان صنعه، من ثابتات وسيارات، وليس فيها ثابت إلا بالنسبة لنظر العين، كلها سيارات تسمى بالثابتة، منها ما سيره بطئ جداً، وقد يقطع دورته فى مئات السنين، وغير ذلك مما هو بين السماء والأرض، وليس بين السماء والأرض فضاء، ما من نقطة من نقاط هذا الجو البسيط إلا وفيها من الحقائق المختلفة والأنواع المتباينة ما يحير العقول من جرم الأرض وما عليها، وفيها مما لو كشفت حقيقة ذرة منها ونطقت بلسان حالها مبينة مظهرها، وحكمة إيجادها وارتباطها بها، لعجز العقل الكامل أن يحيط بما فيها، فسبحان من لا يعلم قدره غيره.

خلق الله الأرواح العاليات جواهر نورانية وأجساماً روحانية ظاهرة جلية، وخلق أسفل سافلين من كثافة ومادة ظلمانية، ورفع العالم العلوى بصفاء جوهره وطهره من التضاد، وسلامته من مقتضيات العناصر، فهو صفاء بالفطرة ونور بالحقيقة، وهو مقهور لقهار، مربوب لرب، فقهره وهو القهار بأن أظهر له بأنه لا فرق بينه وبين أسفل سافلين، بالنسبة للقهار القادر، وأنه جل جلاله هو الفاعل المختار، لا يُسأل عما يفعل، فله المجد والكبرياء، والنزاهة والطهر والقداسة، يقرب ما شاء – لا لأن الذى قربه يستحق القرب – ويرفع ما يشاء فضلاً وإحساناً.

ولما كان القهار اسماً من أسمائه الحسنى – وأسماؤه كلها حسنى – قهر العالم الأعلى قهراً هو عين الإحسان إليه، ليحفظ الله له مكانته التى بها يدوم قربه من الله، وتدوم سلامته من البعد والقطيعة واللعن، فالقهر فى الحقيقة إحسان، لأن القهار اسم من أسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠، وقالت الملائكة الذين هم أصفى الجواهر لوقوفهم عند معرفتهم التى نالوها بقدر مكانتهم من مراتب الوجود لا بقدر الإطلاق الربانى:﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة ٣٠، فكانت

تلك نزعة من نزوع النفس الملكية التى علمت من نفسها بتلك الخصوصية بالنسبة لمجانستها للطهارة، والصفاء من كدورات المادة ولوازمها، فأثبتت جهلها أمام ربها بعد بيان الحكمة بقولها: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ البقرة ٣٢، وقامت الحجة لله تعالى أنه إنما ينفذ ما قدره بحكمه وعلمه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، ثم قهرهم قهراً ثانياً بأن جعل آدم أستاذاً لهم ومرشداً، ليزيدهم علماً وليلزمهم الأدب مع صفاء جوهرهم للجناب المقدس.

فآدم يعنى الإنسان والكنز الجامع لأنواع الجواهر من أعلى عليين لأسفل سافلين، وقد زاده الله على كل حقائق العالم بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ الحجر ٢٩، فالإنسان مخلوق باليدين، ففيه كل الحقائق، وهى الحجة التى أقامها الله على إبليس فلعنه وطرده، فقهر الله من قهر بالإحسان، وقهر من قهر بالانتقام، وكل الأسماء الإلهية تفيض الخير والإحسان، وتفيض القهر والجلال، ومن تفضل الله عليه بالإحسان والنعم فى الدنيا ولم يشكر نعمة الله عليه كانت عليه عذاباً ونقمة يوم القيامة، فآدم وهو درة العقد، بل وهو من طين لازب كمل الله به عوالم عالين، وطرد الله به أهل الشقاء من النفوس الشريرة.

والحجر الأسعد رمز للناس، كرمز آدم للملائكة، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وهو من طين ليقهرها ليدوم لها القرب من الله والحظوة لديه، أمر الناس بحج البيت، وأمرنا رسول الله ﷺ أن نسجد بوجوهنا على الحجر الأسعد ليقهرنا سبحانه وتعالى، حفظاً لمكانتنا العبدية لتعظيم أمره بالطواف حول الكعبة، ولثم الحجر الأسعد – وهو حجر – ومن خالف الأمر لعن وطرد ومن أطاع الأمر رُفع، وهو القهار المحسن بقهره إلى من سبقت لهم الحسنى، وهو هو الموفق المعين لمن أحبه، والمقدر البعد على من لم تسبق لهم الحسنى، وله الحجة البالغة على خلقه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ الأنبياء ٢٣، وفى الإشارة بيان لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

سر السجود لآدم عليه السلام

أبالاجتلا يمحو معالم تحديدى ... ويخفى رسومى أو يستر تجديدى
أم الاجتلا ظل يضئ بسدرتى ... فيجذبنى لحقيقة التفريد
فأفرد قصداً من يظلل سدرتى ... بأنواره فى نشوتى وشهودى
لديها معانى وصفه قد تحيط بى ... وأسماؤه من قادر ومجيد
وفى حيثما وليت أشهد نوره ... جلياً بلا كيف لدى تجريدى
نعم قد أحاط الوجه بى فألاح لى ... بسدرة ذاتى مشهد التوحيد
تجردت من مبانى فى بدء سيرتى ... وسيرى من (كن) فى مقام مزيد
تطورت منها صاعداً متنزلاً ... تنزل قرب والنزول صعودى
ومن (كن) نعم سيرى إلى (كان) وجهتى ... بها ولها سيرى وسر ورودى
إلى المشهد الأجلى ﴿أَلَسْتُ﴾ التى بها ... معاهدتى فيها وثيق عهودى
ومنها إلى طور الظهور تدلياً ... لأرقى إلى العليا مقام عبيد
لعبدية الإطلاق حيث مكانتى ... يلوح بها غيبُ الظهور وجودى
وجود به الأملاك تشهد غيب ما ... به تظهر الأسما لكل فريد
تراءى لهم فى سدرتى سر وصفه ... وأسماؤه لاحت برسم جديد
ولا لبس فى كشف المعانى لأنها ... تراءت بمرآة بلا تقييد
قد استغرقت أسماؤه رسمَ رتبتى ... فلاحت ضياءً بالعطا والجود
فأنبأهم كشفاً بأسمائه التى ... لقد خفيت عنهم قبيل سجود
معانى فى المبانى لروح مجردٍ ... ولى فيَّ نور الغيب بدء شهود
أشاهد غيب الغيب لاح بلا خفاً ... ضياءً بلا مبنى ولا تحديد
ولى رتبة التنزيه كشفاً بلا خفا ... ولى رتبة التشبيه بعد ورود
حضورى لا استحضار حال تقربى ... وفى غيبتى حتى يصح شهودى
وفى ترك غيبى فى حضورى أنا أنا ... خفى فلا أجلى بغير جديد

تلـــوح بـــى الأسـماء لى وأنـــا بهـــا ... دنـــى على ظـــاهـــرى تـــرديـــدى
وقـــد أشرقت شمـــس التجلى منيرة ... فـــأخفت نجـوم حقيقتـــى ووجـودى
وهـــا هـــى جلـت فى علىٍّ نـــزاهـــةٍ ... أنـــا رتبتـــى طين الجفـــا البعيـــد
ونـــور لأملاك الـــسماء مـــشـــاهـــد ... وصـــوغ يـــديه صـــورة لـــودود
يـرانـى فتـى الفتيـان بـالعين أشرقت ... من العين بـالحـسنـى لـدى تفـريـدى

حكمة دخول آدم الجنة

يقول الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فاطر ١٠، فكيف رفع إبليس إلى الجنة ودخلها؟ ظن بعضهم أن جنة آدم كانت بستاناً فى الهند، وليس الأمر على ما أولوا، وأن المكان المقدس لا يدخله إلا الطهر حقاً، فكيف دخل إبليس الجنة؟

هذا مسلم؛ لأن دخول المكان المقدس على سبيل الكرامة والإقامة مستحيل، إلا على أهل هذا المكان، ولكن الأماكن قد يدخلها الشرط (الجند) للابتلاء، فإبليس ابتلاه الله، وابتلى آدم فدخل الجنة لا للتكرمة والإقامة، ولكن للابتلاء، وهى جنة الخلد التى فوق السماوات.

أما آدم فلم يعلم أنها جنة الخلد، لأنه لو علم وأكل من الشجرة رغبة فى الخلد بدلالة عدوه لكان كافراً لأنه لم يصدق ربه، ولكن آدم أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها بأمر إبليس وهو لا يعلم أنها جنة الخلد لأنه سمع ربه يقول: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ البقرة ٣٥، ولو أكل عالماً لقال الله تعالى: وكفر، ولكنه قال: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ طه ١٢١، والمعصية هنا حقيقة، وإن جهل من جهل نفسه فتأول ما لا يليق به أن يتأوله، وويحهم، يقول الله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ طه ١٢١، لأنه خالف وأكل من الشجرة، وأخبرنا الله فى القرآن أنه قال له ولإبليس: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ طه ١٢٣، ثم قال ﴿جَمِيعًا﴾ وهم يتأولون قول الله الظاهر.

وقد قدر الله معصية آدم ومعصية إبليس ليظهر كمال إطلاقه فى قدره، وتدارك لطفه بمن سبقت له عنايته، ليكون للمسلم مندوحة إذا وقع فى معصية أن يتوب إليه، وقد علمت

الملائكة من قبل أن آدم ليس من أهل الجنة، ولا تكون له دار إقامة إلا بعد أن يتولى ما أخبر الله به من قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة ٣٠، وتأويل من أول بأن آدم لم يعص سوء أدب مع الله تعالى، ونظر إلى الحقائق بعين كليلة، لأن الله لعن إبليس وطرده لمعصيته، وذلك أنه سبحانه علم منه سوء القصد وإرادة الشر، وعلم من آدم حسن القصد وإرادة الخير، وهى العناية التى سبقت له، فقدر المعصية وتداركه الله باللطف، فهى معصية جازاه الله عليها بالإهباط إلى الأرض، ولم يذكر حواء فى ذكر المعصية، لأنها تابعة له فى الأكل، والحكم على أحد المتساويين حكم عليهما.

والشجرة أشار الله إليها بقوله: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ البقرة ٣٥، ثم أشار إليها عند إتيان معصية آدم بقوله سبحانه: ﴿فَأَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ الأعراف ٢٢، فالإشارة الأولى تعين أن الشجرة كانت مشهودة لآدم، والثانية تعين أنها كانت بعيدة عنه، لأنه حُجِب عن شهود تلك الحقائق لارتكابه المعصية، وما ورد عن بعض أهل المعرفة من أن معصية آدم كانت صورية فهذا مشهد روحانى مأخذه مشاهد التوحيد العالية لا يقتضى سوء الأدب مع الشريعة المطهرة، وإذا كنا نتأول أخبار الله الصريحة احتراماً لذى مقام عال نقول: إن آدم لم يعص والله يقول: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ طه ١٢١، ويقول: ﴿فَغَوَىٰ﴾ طه ١٢١، ثم أردف ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ طه ١٢٢، نكون أخطأنا، والأولى أن نقف عند خبر الله تعالى، لأن آدم ومن بعده فى هذا الجناب العلى العظيم عبيد مقهورون، وعباد مربوبون، لم يبلغوا درجة النزاهة والقداسة، والذى قدر المعصية قدر الاصطفاء، والله يمنحنا الأدب ويلهمنا الصواب فى القول والعمل.

وقد وهم بعض من اطلع على كلام المؤولين فى هذا الآيات، فظن أن هذا كلام السلف الصالح، والحقيقة أن الحديث الشريف الذى أخذ منه السلف الصالح يقتضى أن سيدنا موسى اعتقدها معصية، وأن آدم عليه السلام اعترف باعتقاده فى صريح حديث البخارى فى قوله عليه الصلاة والسلام: (حج آدم موسى) والحديث مشهور، وإنما تأول بعض العلماء هذه المعصية بأنها صورية لأن الجنة ليست دار تكليف، ونعم، فإن الرب العلى المطلق لم يكلف أهل الجنة إذا دخولها بعد.

ولكنه سبحانه خلق آدم ليكون خليفة فى الأرض، وأدخله الجنة لحكم لا تُحصى، منها أنه يريه نعيمها ومسراتها قبل إقامته خليفة فى الأرض، ليشتد شوقه إلى الجنة، وليسارع إلى ما يوصله إليها من دوام المجاهدة لنفسه وحظه وهواه، رعاية لحقوق الله تعالى وحقوق نفسه وحقوق العباد، فأسكنه الجنة ليبتليه بهذا المشهد، ثم ابتلاه بإبليس ليوقعه فى المعصية، وليتوب عليه سبحانه، حتى لا يحصل له اليأس والقنوط إذا عصى الله فى دار الابتلاء فيقبل على الله تائباً موقناً بالقبول.

تقرر من هذا أن آدم لم يدخل الجنة للكرامة والإقامة، ولكنه دخل لحكمة بالغة بينت لك بعضها، وإذا منحك الله وجود الشهود ألهمت أسرار هذا الإسكان فى الجنة وغيب هذا الابتلاء، وتراه فى نفسك إذا بلغت مقام الرضا إن شاء الله تعالى، وعلمت خلق إبليس، وسر تسليطه على الإنسان، وغريب تصريفه، وقدرته على أن يشاركهم فى الأموال والأولاد، وسر بقائه لليوم المعلوم، وفى تلك الحقائق من الأسرار ما يقف عندها العقل خاسئاً وحسيراً، والتسليم سلامة والذوق عناية.

الفردوس

أنت فى غربةٍ فكن كالغريب ... فالمبانى أواسط التحجيب
أنت بدءاً نور وصورة مجدٍ ... حجبتها ظلال كون عجيب
كن غريباً وفرَّ منك إليه ... حيث وطنى غيب الولى القريب
وَالْحَظَنْ بدءَك الذى أنت منه ... نور ملكوته وسر الغيوب
كيف تنسى وأنت بدءاً مراد ... فيك غيب من قادر ومجيب
من علىٍّ الفردوس أرددت كيما ... تشهد الآى بعد محو العيوب
فى ﴿أَلَسْتُ﴾ شَهِدتَ وجهاً علياً ... بل سمعتَ الخطاب فى المكتوب
كيف تنسى وطناً عزيزاً بأدنى ... والمعانى لاحت بكل منيب
أسجد العالمين علواً وسفلاً ... سخرت منة بقهر الرقيب
كيف أنسى والآى لاحت لروحى ... أننى صورة العلى القريب

أيها الروحُ كنت فى أفق أعلى   فى صفاء وبهجة المشروب

أيها العقلُ كنت أفقاً مبيناً   تشهد الغيب فى انمحا التحجيب

أيها الجسمُ كنت فى نعموت   فى رياض الفردوس محو اللغوب

أيها الحس كنت فى الأنس تجلى   فيك أسراره بغير خطوب

ثم أُرددتَ للحضيض فسارع   عد إلى البدء فى شهود الغيوب

حجبتنى الآثارُ عن غيبِ غيبٍ   كيف أنسى مسرتى تقريبى

رتبة السفل كى أرى نور ربى   كى أهنى بمشهد المحبوب

بدء وطنى الفردوس ملكوت ربى   بل وبدئى بدءاً رياض حبيبى

نفخة منه فى لاحت عياناً   شاهدتها الأرواحُ قبل القلوب

ثم رُدت لأسفل السفل بعداً   فى ظلال الأسباب رشف المشوب

سارعى للصفا قبيل مماتى   كى تلوحى شمساً بغير غروب

والحظى الغيب من جمال التجلى   تدخلى حضرة الجمال المهيب

من أسرار القرآن

فى الخلق والتصوير وسجود الملائكة لآدم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ الأعراف ١١.

تأول بعض المفسرين هذه الآية الشريفة بما لا يطابق ظاهرها، فقال بعضهم خلقناكم آدم، ثم صورناكم آدم، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، وقال بعضهم غير ذلك مما يقرب منه.

وتأويلها أن الله تعالى يخاطب حقائقنا المعلومة له الموجودة لديه قبل إبرازنا فى الأعيان الظاهرة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ يعنى من العدم حيث لم تكونوا شيئاً ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ هذا أيضاً خطاب من الله تعالى لنا، يخاطب حقائقنا فى البدء قبل النشأة الأولى، أى: خلقناكم فى يوم من أيامنا، صورناكم فى أحسن تقويم، فخلقنا أصلكم الأول، يعنى ﴿آدم﴾ فى يوم من أيامنا، ثم أتممنا خلقه، وأبرزناه إنساناً سوياً، ثم بعد ذلك كله نفخنا فيه من روحنا وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فحقائقنا قبل إبرازنا فى هذا الكون المحسوس كانت معلومة ومخاطبة.

وفى هذه الآية دليل على أن الله تعالى أحاط بنا علماً قبل خلقنا وتصويرنا وقبل سجود الملائكة لآدم، وأبرزنا جل جلاله فى كل من أوطاننا بقدرة وحكمة، فالذى علم بنا وخاطبنا قبل وجودنا فى هذا الكون يعلم بنا ويقدر علينا، وله فينا التصريف المطلق، يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وما على العبد المؤمن إلا أن يديم مراقبة الله تعالى وشكره، والإخلاص فى عبوديته، وهذه الآية أيضاً راح طهور لمن زكت نفوسهم، تشهد أهل الإيمان أسرار قدرة الله القادر، وغيوب حكمة الحكيم جل جلاله.

قوله تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ تأول بعض المفسرين السجود بالتحية والاحترام، ولو كان ذلك لقال: حيوا آدم بالسجود، ولكنه قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ فالسجود بحسب الأمر لآدم، ولما كان السجود فى الحقيقة هو الانقياد والطاعة، وإنما جعل وضع الوجه على التراب فيه

حُجة للسمع والطاعة للأمر، وحجة الساجد على أنه سمع الأمر وأطاعه.

ولك فى تأويل السجود لآدم معنيان، الأول: أن الله تعالى سخر ملائكة السماوات فقط لآدم وذريته، فضلاً منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الجاثية ١٣ ومعنى: ملك، رسالة، مأخوذ من: ألك، أو لأك، أى: أرسل رسالة، فأصل: ملك، مألك أو ملأك.

والذين سجدوا لآدم هم هذا النوع المسمى بالملائكة فقط، وأما حملة العرش وما فوق ذلك من أرواح عليين وأعلى عليين، فإنهم سجدوا لرسول الله محمد ﷺ.

والثانى: أنهم سجدوا لآدم لما شهدوا فيه معنى صفات الحق جل جلاله، التى بها عرفوه سبحانه، وتمثلته قواهم الملكية، فسجدوا لربهم الظاهر بمعانى صفاته فى آدم.

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أى فسمع الملائكة وأطاعوا وانقادوا لأمر الله سبحانه وخروا سُجداً جميعاً، فإن أمره سبحانه كما تقدم ابتلاء منه لخلقه، ولكنه إذا أمر سبحانه بتعظيم حقيقة، ما وجب علينا إلا الانقياد لأمره فنسمع ونطيع الأمر، فإذا نحن أطعنا الأمر أكرمنا الله تعالى بانقيادنا لأمره بانبلاج أنوار خواص تلك الحقيقة التى أمرنا بتعظيمها، فإن بعض المطيعين يقومون بتنفيذ الأمر مع جهلهم بحكمة الأمر، وقد أثنى الله على أهل الإيمان بالغيب، ثم بين سبحانه لهم أن ينظروا بعقولهم، ويبحثوا بحث مستفهم راغب فى تحصيل العلم، ليفوزوا بكشف أسرار معلومهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الزمر ٢١، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ الحجر ٧٥، ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الحشر ٢، وكثيراً غير ذلك. وقد ذكر سبحانه أمثال هذه الايات الشريفة مكررة حثاً على تحصيل العلم وبحثاً عن كشف الحقائق، وهذا علم له وسائل خاصة أعظمها وأجلها العمل بما يتعلمه الإنسان من أحكام الشريعة، قال ﷺ: (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ البقرة ٢٨٢.

ظهر من هذا أن الواجب علينا التسليم لرسول الله ﷺ من غير أن نطالبه بدليل أو

برهان على ما يخبرنا به، حتى تزكو نفوسنا، وتتطهر من ملابستها للعناصر الجسمانية، فتتأهل لتتلقى أسرار الغيب المصون، فإن فى قلب العالم علوماً ليس لها نظائر ولا أشباه فى العالم المحسوس، والعقول لا تدرك حقيقة إلا إذا تمثلتها النفوس، وحقيقة ليس لها مثال ولا مثل وليس للعالم قدرة على أن يمثلها لمن لم يرتاضوا بمبادئ العلوم، بل لم يسلموا للعلماء الربانيين، ولذلك فإن الله أثنى على أهل التسليم الذين صدقوا بالغيب، وسلموا لرسول الله ﷺ تسليماً.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ الأعراف ١٢، بعد أن قال تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ إبليس هذا هو الشيطان، وإبليس لأنه أبلس أى أخلد إلى الأرض، وشيطان لأنه إما أن يكون من: شاط، أو من: شطن، فإن فى شاط معنى الالتهاب، وشطن بمعنى بعد، وإبليس هذا كان يطمع أن يكون خليفة الله فى الأرض، فإن خليفة الله فى الأرض سيد أهل السماء لأنها ليس فيها من يعصى الله تعالى، فإن الكفر بالله كائن فى الأرض، والخليفة فيها قائم مقام ربه فى تصريف الأمور، ورفع الظلم ومحاربة الكفر وإصلاح المجتمعات، وكانت هذه طلبة إبليس، فلما قال الله تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أخذ منه الحسد كل مأخذ، وأغرى الملائكة على أن يقولوا ما قالوا مما أخبرنا الله به مخبراً عنهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ الخ.. حتى قال الله لهم: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، فسلموا لله تعالى فى خبره.

وأراد الله تعالى أن يظهر سر قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، فكون آدم من العناصر السفلية، ثم جمله بمعانى صفاته الربانية، فشهد الملائكة فى آدم ساطعة نور من قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، وسجدوا جميعاً إلا إبليس هذا فإنه فسق عن أمر ربه بالسبب الذى بيناه، من أنه كان يطمع أن يكون خليفة لربه فى الأرض، ولكن الله سبحانه يختص برحمته من يشاء، فكان إبليس أول من حسد، ولذلك فالحسد أشر أمراض الأخلاق، وكفاه أنه خلق إبليس. وقد بلغ الحسد منه لآدم ولذريته حتى حصل منه كما سيبين الله لنا، وما بين فى هذه الآيات، وما بينه من قبل.

﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أى لم يكن ممن سجدوا، لما بينت لك من أنه من الجن الذين هم من النار ذات النور لا من النور الذى لا نار فيه.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ﴿مَا﴾ هنا استفهامية، والمعنى: أى شئ منعك عن السجود، وأن تقول: (لا أسجد) فحذف: تقول، كما هى عادة القرآن فى حذف ما يعلم، فإنا لو فهمنا الآية كما فسرها بعض المفسرين فى أن ﴿لا﴾ زائدة صلة أو أنها لتأكيد الخبر، نكون قد تكلفنا ما لا يلزم فى كلام الله تعالى، ولا ينبغى لنا أن نقول إن حرفاً زائداً فى القرآن أبداً، لأن القرآن كلام الله القويم، ولكل حرف منه معنى خاص تظهر أسراره لأولى الألباب، وما علينا إلا أن نسلم لله بعد فهم الحقائق التى يريدها الله تعالى، فالله تعالى يشنع على إبليس ويوبخه لأنه امتنع عن السجود، وإذا خفيت علينا الحكمة سلمناها لله تعالى، ولا يجب علينا أن نتأولها بقدر عقولنا ولا بقدر أساليبنا فى العبارات.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أى حين أمرتك بالسجود لآدم، ألست تؤمن أنى ربك بما قام لديك من الحجج، وأنى علىٌّ عظيم عن أن أُحَس وأُمَس، بل وعن الاحتياج إلى مخلوق من خلقى، وما بقى من دلائل تعظيم عبادى لى إلا أن يطيعوا أمرى ويسارعوا إلى تنفيذ حكمى، وقد أمرتك أمراً ينبغى أن يطاع لكمال العبودية، فما منعك؟

فأجاب الله تعالى مستدلاً بالقياس، فكان أول من فتح هذا الباب إبليس واقفاً عند ما يدركه، وهو عاجز عن أن يدرك سر إيجاده، فقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾ وعلى زعمه النار لطيفة منيرة، وما فقه ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ والطين على قدر عناده سافل وردئ، وجهل – أعاذنا الله منه – أن الله تعالى يرفع أسفل الحقائق حتى يسوده على أرفعها، وأن الطين مجمل بالتواضع والحلم والسكينة، وهو أنفع للخلق من النار، ولن تحصل منه مضرة أبداً بل كله خير، فمنه الإنبات، ومنه رفع المنازل، ومنه ومنه مما أدركه فيه أهل العلم بالله تعالى، ولو لم يكن فيه ولا مزية ولكن الله منحه الأفضلية، وجعل منه من سخر لهم المُلك والملكوت، ولأجلهم خلق الكون وهم الأنبياء وورثتهم والأولياء والصديقين والشهداء وتابعوهم إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الأعراف ١٣، (الفاء) هنا للفصيحة وهى التى أفصحت عن جواب شرط مقدر منه، إذ ظهرت حقيقتك الخبيثة العنادية فاهبط منها، أى ابعد مطروداً هاوياً إلى السفل، وهنا ثبت أن تخصيص عموم الصريح بالقياس مذموم عند الله تعالى، فإنه تعالى ذم إبليس وطرده من رحمته لأنه خصص عموم الصريح بالقياس الذى أتى به، لأنه قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ الأعراف ١٢، والنار جسم نورانى، ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، والطين جسم ظلمانى، فنتج أن النار خير من الطين، وجائز أن تكون (الفاء) فى قوله: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ للترتيب، ﴿مِنۡهَا﴾ أى من جنة عدن أو من السماء محل الأطهار.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ معنى هذه الآية أن الله أهبطه إلى سافلين، لأنه حكم بالخيرية على آدم تكبراً بعنصره النارى على عنصر التراب، ونسى أن الحكم لله، بيده الفضل يؤتيه لمن يشاء سبحانه، وليس الفضل بالجواهر التى كون منها الشخص، وإنما الفضل بيده سبحانه، وما دعاه إلى هذا – قاتله الله – إلا حسده لآدم وهذه من أسرار قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠.

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمره بالخروج من جنة عدن أو من السماء، وأخبره الله تعالى أنه ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أهل الصغار والخزى والذل.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ الأعراف ١٤-١٥.

﴿قَالَ﴾ استئناف ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ أى: أرجئنى حياً بين ظهرانيهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ أى إلى النفخة الثانية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ الزمر ٦٨، قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ أى ﴿قَالَ﴾ استئناف أيضاً، وإن لتوكيد الخبر، والكاف كناية عن إبليس، من المؤخرين إلى يوم يبعثون لأنه سبق فى علمه تأخير موتك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ الأعراف ١٦.

أثبت الغواية من الله وهو مذهب الجبرية، وهى دليل على علمه، والباء هنا إما للقسم

ويكون المقسم به فعل الله غواية إبليس أو للسببية، وتكون المعنى: إغوائك، و﴿لَأَقۡعُدَنَّ﴾ إما جواب القسم أو المسبب عن السبب، و: أَقْعُدَن، كناية عن صده عن سبيل الله، فكان كالحجر فى طريق الماء، فلا هو انتفع ولا تركها لمن ينتفع بها.

و﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هو القرآن المجيد، فيدعوهم إلى تأويله بالقياس كما فعل، وعلى فهمه على خلاف ما أراد الله، وعلى أن يجعلوه أغانى للطرب والأنس فى المجتمعات، وعلى أن يهجروا العمل به، وعلى أن يجادلوا فيه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ الأعراف ١٧.

أما إتيانه لهم من بين أيديهم فوسوسته لهم حتى يحجبهم عن التفكير فى آيات الله المنبلجة، أو ينسيهم الآخرة التى هى أمامهم، أو يوقعهم فى الضلال بالنسبة للأعمال المستقبلة وغير ذلك، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ أن ينسيهم شكر الله على ما أسبغ عليهم من النعم من قبل، أو ينسيهم التوبة من الذنوب التى فرطت منهم من قبل، أو ينسيهم ما أخذه الله ورسوله ﷺ من العهود ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أى من الجهة التى هى محل عمل الحسنات ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ أى من الجهة التى هى محل السيئات.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ هذه الآية خبر من الله تعالى عن كلام إبليس مع ربه جل جلاله، يقول: ولا تجد أكثر بنى آدم شاكرين لك يا ربى ما تفضلت به على أبيهم آدم من صوغك له بيدك، ومن نفخك فيه روحاً، ومن سجود الملائكة له، وإسكانك له فى الجنة، وما أكرمت به بنيه من تسخير مُلكك وملكوتك لهم، وإمدادهم بما لابد منه وأكثر من النعم المقتضية وجوب الشكر.

وإبليس فى هذا بعد أن كان أول حاسد لآدم وبنيه، كان أول من فتح باب الغيبة والنميمة، والسعى بين ربنا وبيننا، يريد بذلك إلقاء العداوة والبغضاء من ربنا سبحانه وتعالى لنا، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وكذلك فإن إبليس لا يعلم

الغيب الذى أخفاه الله لآدم وذريته من سعة التوبة والمغفرة، ومن تبديل السيئات حسنات، فقاتله الله من عدو، وأعاذنا من وسواس خناس، وأشهدنا الله طرق وسوسته لنا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ الأعراف ١٨.

﴿قَالَ﴾ استئناف، و﴿ٱخۡرُجۡ﴾ أمر بالطرد، و﴿مِنۡهَا﴾ تقدم الكلام عليها ﴿مَذۡءُومٗا﴾ أى مذموماً مجللاً بالخزى والصغار والخذلان، وقرئت: مَذُوماً، بالواو بدل الهمزة ﴿مَّدۡحُورٗا﴾ أى مبعداً مطروداً، فإن دحره أى أبعده وطرده ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ اللام للقسم، ومن اقتدى بك واهتدى بهديك، وسلك سبيل الضلالة معك من بنى آدم.

﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ خبر من الله تعالى أن يعاقب من أطاعوا إبليس بالخلود فى نار جهنم، لأنه يقول سبحانه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ ومعنى ملئها أى: أنها بعد أن تملأ يغلقها عليهم كما يملأ الإنسان خزائنه ويغلقها على ما فيها، والمعنى ينتقم من كل متبع لإبليس وهم أهل الكفر والمنافقون والملاحدة، وهؤلاء يستحقون الخلود فى النار جزاء من الله عدلاً.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأعراف ١٩.

هذه الآية دلت بصريح لفظها أن الجنة فى ذلك الوقت ليست مقراً لآدم يخلد فيها، بدليل قوله: ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ فإن ﴿ٱسۡكُنۡ﴾ تدل على التحول والانتقال، فكان هذا الخطاب أكبر انتقام من إبليس الذى أحرق قلبه الحسد، والجنة هى بستان ملتف شجرها جمعت أنواع النعيم والمشتهيات، لا يرى من هو خارجها ما هو داخلها لالتفاف أغصانها وأوراقها.

﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ أمر من الله تعالى لهما بأن ينتفعا بكل نعيم الجنة، فتكون لهما المشيئة المُطلقة، وكذلك أهل الجنة تكون لهم المشيئة المُطلقة إذا وصلوها، قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ق ٣٥، وهذا هو الكمال الإنسانى الذى أعده الله لأهل محبته.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ بلاء خفى ومحنة عجيبة، فإن الأمر والنهى من الله تعالى حقيقة الابتلاء منه لعباده، وبقدر حسن الاتباع والإخلاص فى النية والصدق فى العلم تكون للإنسان المشيئة يوم القيامة فى فردوس الله الأعلى، حيث يكون عُمار السماوات من الأملاك مسخرين لمن مات على الإيمان فى دار النعيم المقيم الأبدى.

ومن خالف الأمر أو النهى حاق به العذاب فى الآخرة، والخزى والذل فى الدنيا، وما أمر الله ونهى إلا ليميز الخبيث من الطيب، كما سبق فى علمه جل جلاله، ولولا الأمر والنهى لكان الناس فى فترة الناجين، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ الإسراء ١٥، وهذا النهى كان سبب بلاء آدم وإهباطه من الجنة، وعيشته فى الأرض فى كد وعناء وهموم وغموم وأسقام وبلاء، بعد أن كان فى النعيم مُطلق المشيئة والإرادة.

وإنى لأعجب من مسلم يعتقد أن تلك الدار الدنيا دار الفناء والبلاء، ودار المسارعة إلى محاب الله ومراضيه، أو الهبوط إلى دار العذاب الأليم، ويسمع أخبار الجنة ويعتقد أنها حق، ثم يطمع فى الدنيا أو يغتر بها وبزخرفها، ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء.

واختلف العلماء فى الشجرة التى نهى الله آدم، وقد تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة، وهنا أزيدك أيها الطالب علماً زادنا الله وإياك فقهاً فى كلامه القويم، ومنحنى الله وإياك التسليم.

إن نهى الله تعالى آدم عن أكل الشجرة، لابد وأن تكون تلك الشجرة لها خصوصية تشير إلى معنيين عظيمين:

الأول: تعظيم الناهى للبعد عما نهى عنه.

والثانى: أن تكون الشجرة مشيرة إلى غيب من غيوب التوحيد، وإلا فالله تعالى يمنح آدم المشيئة فى أن يأكل من نعيم الجنة كيف شاء ومتى يشاء ومما يشاء، وينهاه عن السنبلة أو عن الشجرة – شجرة التين – كلياً، نعتقد أنه سبحانه يأمر وينهى بما شاء لا مُعقب لحكمه، ولكنا نجله وننزهه عن أن يأمر أو ينهى بغير حكمة عالية، لا يمكن أن تدرك إلا لأهل

العلم بالله تعالى، فإنه أمر الملائكة بالسجود لآدم لحكمة عالية جداً، وهى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ الحجر ٢٩، وقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ ص ٧٥، فكشف لنا الحكمة جلية أن الملائكة ما سجدوا لآدم إلا بعد أن خلقه بيده وسواه جل جلاله على أحسن التقويم ونفخ فيه من روحه، وكذلك فإنه ما نهاه عن أن يقرب هذه الشجرة إلا لحكمة عالية جداً، وقربه من الشجرة له معنى من المعانى التى يعلمها أهل العلم بالله، ولا يبعد أن يكون المُراد من الشجرة هى شجرة الله تعالى، التى رأسها جهة العرش، وفروعها مُدلاة جهة الأرض، كسدرة المنتهى التى رأسها مغروسة فى الطين وفروعها مدلاة على الجنة، بخلاف شجرنا فإن رؤوسها مغروسة فى الطين وفروعها مرتفعة إلى العلو، وشجرة الله هى التى غرسها بيده من روحه، وأسجد لها ملائكته ونقلها فى جنة عدن.

وهنا يفهم من فقه الإشارة، إنما هو فهم يهبه الله لمن يشاء من خلقه، ومعنى قربه منها أن ينسى الله تعالى فينسيه الله نفسه، ومعنى أن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان بيده من طين أولاً، ثم خلقه من ماء مهين ثانياً وصوره بنفسه، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ آل عمران ٦، فالإنسان هو شجرة الله تعالى.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أى من الذين ظلموا أنفسهم بمخالفتهم نهى الله تعالى، ومن هنا فهمنا أن القرآن كما قال ﷺ لكل حرف منه ظهر وبطن ولكل حد ومطلع، فظاهره لأهل الظاهر، وباطنه لأهل الإيمان الكامل، وحده لأهل الشهود فى مقامات الإحسان، ومطلعه لأهل الوجود الحق فى مقامات اليقين، ولا يعارض مذهب مذهباً، رزقنا الله تعالى العلم به، وبحكمة ما أوجده فى كونه، إنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ الأعراف ٢٠.

الوسوسة هى إلقاء ما فيه مضرة إلى الغير، وأما إلقاء ما فيه خير للأرواح فيسمى وحياً، وما فيه خير للأشباح يسمى وعظاً، وكل ما يلقيه إبليس فهو وسوسة لأنه لا يلقى إلا ما هو شر. وسوس على وزن (وعوج الذئب) و(ولولت المرأة)، يخبرنا الله تعالى أن آدم بعد أن

أسكنه الله الجنة هو وزوجه، كبر الأمر على عدو الله إبليس ودعاه الحسد وخبث الطبع أن يوقع آدم فيما يبعده عن ربه، كما بعد هو، لأنه يعلم أن ربنا تنزه وتعالى غنى عنهم وعن الخلق، غيور لأمره ونهيه، وكان عدو الله محجوراً عليه أن يدخل الجنة، فتقرب من الحية التى كانت خازنة الجنة ووقف يبكى جوارها، حتى أحزنها فسألته، فقال لها: إن آدم وحواء لهما عندى نصيحة وأحب أن تدخلينى فى فمك وتدخلين الجنة حتى أبلغهما ما لهما عندى، فرحمته ووضعته فى فمها، ودخلت الجنة، فوقف يبكى جوار حواء حتى أحزنها، فسألته قائلة: ما بالك، فقال: أبكى عليكما تموتان وتفارقان هذا النعيم المقيم، فسألته: وما يُبقى فيه؟ فقال: أن تأكلا من تلك الشجرة، فتقدمت إلى آدم فأخبرته، فأنكر، فأقسم لهما بالله إنه لمن الناصحين، وهذا الذى وسوس به إبليس إلى آدم وحواء، وهو خبره لهما أنهما يموتان ويفارقان هذا النعيم المقيم، فأكلا منها.

ومعنى هذا الآية الشريفة وهى قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ أى وسوس إليهما، وإنما أتى باللام هنا لحكمة فى أن الوسوسة إذا لم تقبل كان متعلق الفعل بـ إلى، وإذا قبلت كان باللام، فالإشارة إلى أنها قبلت لاعتقادهما أن النصيحة نافعة لهما، فقبلا منه وأكلا من الشجرة.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ هذه الآية الشريفة وما قبلها تقدم الكلام عليها فى سورة البقرة، وإنما نتكلم عليها هنا لنبين ما لم نبينه من قبل.

جمل الله تعالى آدم بعد أن نفخ فيه من روحه بجمال جعله مظهراً لانبلاج معانى صفاته سبحانه وتعالى، وعلمه الأسماء كلها، وكان يشهد معانى الصفات منبلجة فى هيكلها الذى كان رِقاً لتلك الأسرار، وكانت تلك الأنوار لا تفارقه لأنه حاضر القلب شديد المراقبة، تمثلاً لأنوار معانى الصفات، حتى وسوس إليه عدو الله إبليس وخدعه بحلفه له بالله تعالى، فصدقه وأكل من الشجرة، أى نسى جمال الله الظاهر بمعناه فى هيكله، قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر ١٩، فنسى حقيقته التى بعلمه بها يجمله الله تعالى بهذا الجمال، فلما نسى سلب ما كان منحه الله له تفضلاً منه جل جلاله، وتسلطت عليه قوى النفوس الشهوانية والغضبية والعنادية، فشعر بقضاء الحاجة، ونظر فرأى ما لم يكن يراه فى سوآته، ولديها حُمِل

بعد أن كان محمولاً، فأخذته الحيرة وراح يطوف فى بساتين الجنة ويستر عوراته حياء من الله تعالى، فكانت وسوسة إبليس لآدم طمعاً فى أن يأكل من الشجرة فيسلب منه هذا النور، فلا يكون أهلاً لما أهله الله له من هذا النعيم المقيم فى جوار الله تعالى وكذلك يخف عن إبليس ثقل حمل الحسد والعداوة والبغضاء بسلب النعمة عن آدم، أعاذنا الله تعالى من أهل الكيد.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ الذى كان يستر سوآتهما هو نور استجلاء معانى الصفات كما تقدم، وقال بعض المفسرين: هو غشاء من نوع القطن، وقال بعضهم: هو نور أخفاها، وكل ذلك جائز.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾، ﴿قَالَ﴾ استئناف، والآية بعدها ما وسوس به إبليس لهما، والمعنى: ما نهاكما ربكما عن تلكما الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين بكسر اللام، وفى رواية أخرى: ملكين بفتح اللام فالثانية: أن تكونا من الملائكة الخالدين المنعمين بالطهر والصفاء، وفى الأولى: من الملوك، أى تفوزون بمُلك الجنة لكم فيها ما تشاءون إلى الأبد، أو كراهة أن تكونا من الخالدين الذين لا يموتون أبدا، فانزعج آدم وإن لم يذكر هنا انزعاجه، إلا أننا نستدل على انزعاجه بحلف إبليس له، فإن المقسم لا يقسم إلا إذا رأى شكاً أو ريبة فى المُخاطب ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ الأعراف ٢١، أى أقسم لهما، وإن كانت المفاعلة تقتضى العمل من جهتين، يكون إبليس أقسم وآدم قبل فكأنه أقسم أيضاً، وصح الخبر من الله تعالى بقوله ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ الأعراف ٢١.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الأعراف ٢١.

أى أنه – لعنه الله – أقسم مؤيداً نصحه لهما باليمين الفاجرة، ولم يكن آدم يعلم أن أحداً يقسم بالله كذباً، وكيف ذلك وهو من عالم الطهر والصفاء.

ولا تخلو وسوسة إبليس لآدم وزوجته وقبولهما منه من حكمة يتذوقها أهل العلم بالله تعالى، وهنا نعلم أن الله تعالى أمرهما ألا يقربا تلكما الشجرة، فأكلا منها تنفيذاً لقدر الله تعالى، وإظهاراً لما يعلمه سبحانه وتعالى، وقياماً بحجته على الملائكة الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ

فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ البقرة ٣٠، إلى حيث أهبطه الله تعالى إلى الأرض كما يأتى، وخلق من ذريته رجالاً يقومون لله بأجمل الأعمال والطاعات، متبرئين من حولهم وقوتهم، يبكون شوقاً إلى الله، يشتاقون إلى الله جل جلاله، مع أن الملائكة الأطهار قالوا فى مواجهة ربنا جل جلاله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة٣٠، فأثبتوا لأنفسهم التسبيح والتقديس، وهذا لا يشهده الأخيار من ذرية آدم، فسبحان من أخفى جماله فى جلاله، وحير العقول فى أسرار قدره وحكمة أفعاله.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ الأعراف ٢٢.

أى أعد نفسه مظهر الدال على الخير، زخرف القول غروراً بما أقسم لهما ليخدعهما، فلما ذاقا الشجرة نسيا أنفسهما، لأنهما نسيا نهى الله تعالى بغرور العدو، فانفصلا عن الاستقرار فى مشهد التوحيد العلى، انفصالاً شهدا به وجودهما، فبدت لهما سوآتهما، أى ظهر لهما احتياجهما إلى ما لابد منه للإنسان من قضاء حاجة وستر عورة، وفى ذلك ما لا يطيقه إنسان ﴿طَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أى أسرعا يختطفان ورق الجنة ليسترا به عوراتهما، وكان آدم كالنخلة ثائر الشعر، فقابلته شجرة فأمسكت بشعره، فقال: اتركينى، فقالت: لا أتركك، ولديها ناداه ربه: إلى أين تفر منى يا آدم؟ فقال: استحياء منك يا رب. عندما أمسكت به الشجرة ناداه ربه سبحانه مُذكراً له عهده ونهيه قائلاً سبحانه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ولديها سأله: من أمرك بالأكل منها؟ فقال: أمرتنى حواء، وقالت حواء: أمرتنى الحية، فقال للحية: من أمرك بأن تأمرى حواء بالأكل منها؟ فقالت: أمرنى إبليس. وقدر جل جلاله أن يهبط آدم من الجنة، وقدر سبحانه أن تدمى حواء من كل شهر مرة كما أدمت الشجرة، وقدر سبحانه أن يقطع قوائم الحية حتى تمشى على بطنها، ولعن إبليس وطرده.

وقوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الأعراف ٢٣.

هذه الآية الشريفة هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه، فإن آدم سأل الله التوبة

فأعطاها إياه، وإبليس سأل النظرة فأعطاها إياه، وتفضل جل جلاله فألقى الكلمات على آدم فتلقاها منه سبحانه، وهى قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بمخالفتنا نهيك، وإن أنت لم تغفر لنا فتستر مخالفتنا لنهيك بستر مغفرتك ﴿وَتَرْحَمْنَا﴾ أى تبدل تلك السيئة الكبرى برحمتك حسنة بما وفقتنا له من التوبة ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أى الذين خسروا أنفسهم يوم القيامة، وهذا الدعاء إذا دعا به المذنب واجداً مرارة وانكسار قلبه بين يدى ربه غفر الله له، فإن آدم تلقاه من ربه، والمسلم المذنب تلقاه عن أبيه آدم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الأعراف ٢٤.

الهبوط هو السقوط من علو إلى أسفل، ومعنى هذه الآية الشريفة أن آدم وحواء وقع بينهما العداوة وبين إبليس والحية، فلا يذكر إبليس على لسان مسلم إلا لعنه، ولا يرى إنسان الحية إلا صفع رأسها بنعله.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أى لكم فيها استقرار، ولكم فيها ما تحتاجون إليه للمتعة به، مما لابد لكم منه وأكمل، من مأوى وهواء ونباتات وحيوانات، وغير ذلك مما لا تطيب الحياة إلا به، وفى ذلك عقوبة لآدم وحواء اللذين كانا فى جنة عدن لهما ما يشاءون فيها، وعقوبة لإبليس الذى كان خادم السماء الأولى، وطامعاً فى الخلافة عن ربه فى الأرض، وعقوبة للحية التى كانت جميلة الطلعة عالية المكانة ضخمة الجسم، فصارت ملتصقة بالتراب يخدش رأسها كل من رآها، مما زاد فى حزن آدم، وفى طرد ولعنة إبليس، وذل وخزى الحية ﴿وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ المتاع للأجل المسمى لهم جميعاً.

الباب الثانى

النشأة الكونية

الفصل الأول

بطن الأم

الأوطان خمسة

الأوطان خمسة: وطن ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، ووطن بطن أمك، ووطن الدنيا، ووطن البرزخ، ووطن الدار الآخرة، ما ترك من الجهالة شيئاً من سأل الله أن ينال شيئاً يخص وطناً خلاف الموجود فيه.

وطن التحديد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، ووطن التصوير الرحم، ووطن التكليف والتعريف الدنيا، ووطن الانتقال البرزخ، ووطن الجزاء الآخرة.

أطوار الإنسان فى وطن الأم

وللإنسان فى وطن بطن الأم أطوار: نطفة ثم علقة ثم مضغة ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ الحج ٥، ثم عظام ثم لحم يكسوا العظام ثم التسوية والتصوير ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ المؤمنون ١٤، والتعديل ثم نفخ الروح.

١ مرحلة النطفة: تطلق النطفة على ثلاثة أشياء:

أ ـ نطفة الذكر وهى الحيوانات المنوية.

ب ـ الأنثى وهى البويضة.

ج ـ النطفة الأمشاج وهى المختلطة من الماءين، أى البويضة الملقحة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ الإنسان ٢.

٢ والبويضة الملقحة تبدأ فى الانقسام وتتحول إلى علقة، ويبدأ الطور الثانى بعد أسبوع، أى منذ اليوم السابع، وهى تمتص حين تعلق بجدار الرحم غذاءها، وتتعلق بجدار الرحم بجملة تعلقات، ويستغرق هذا الطور أسبوعين.

٣ ويبدأ ظهور أول كتلة للبدن فى اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح، وعندئذ تكون العلقة قد تحولت إلى مضغة، ويشبه الجنين فى هذه المرحلة قطعة لحم لاكتها الأسنان ثم قذفتها بعد مضغها، وهذا أدق وصف لها.

٤ ـ ٥ مرحلة العظام واللحم ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا﴾ المؤمنون ١٤، وهى تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع وفيها يتم خلق معظم الجهاز الهيكلى ويتكون الجلد وما تحته من أنسجة، والجزء العضلى يسبق فى تكوينه اللحم.

٦ ثم يأتى طور التصوير والتسوية والتعديل ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ آل عمران ٦، ومن أسماء الله الحسنى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ آل عمران ٦.

أن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة فى الجنين بشكل مثير، إذ فى كل يوم بل كل ساعة تشهد جديداً، ومن له أدنى إلمام بعلم الأجنة والتشريح ووظائف الأعضاء يعرف كيف أن أجهزة الجسم المختلفة تهدم ويعاد بناؤها فى الجنين، ثم تقل هذه التغييرات بعد الولادة، وتقل أكثر بعد البلوغ، لكنها لا تتوقف حتى فى الشيخوخة.

ولأن الناس كلهم لآدم وحواء وألوانهم وخلقهم مختلفة، فلولا مخالفتهم شبه والديهم لكانوا على خلقة واحدة، ولأن دلالة الشبه ضعيفة ودلالة ولادته على الفرش قوية، فلا يجوز ترك القوى لمعارضة الضعيف، ولذلك لما تنازع سعد بن أبى وقاص وعبد بن زمعة فى ابن وليدة زمعة ورأى النبى ﷺ فيه شبهاً بيناً ألحق الولد بالفراش وترك الشبه.

وفى يوم بطن الأم تأتى أحاديث العفة والنزاهة والمحافظة على أصل النوع الإنسانى، قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة: (أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله فى

شئ ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عنه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين).

ولأن فى الأمراض الموروث كما يشير علم الوراثة أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين، كما حدث فى حديث أبى هريرة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: ولدت امرأتى غلاماً أسود وهو حينئذ يعرض بأن ينفيه، فقال ﷺ: (هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال حمر، قال هل فيها من أورق أسمر أو رمادى، قال: إن فيها أورقاً، قال: فأنَّى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعة عرق، قال: فهذا عسى أن يكون نزعة عرق)، ولم يرخص له فى الانتفاء منه، وهذا حديث يدل على سعة علمه ﷺ مع قدرته فى الحوار والإقناع.

لذا قال الحبيب ﷺ: (تباعدوا لا تضووا).

٧ وقال ﷺ مبيناً أن التخليق مستمر: (إذا مر بالمنطقة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكاً فغيرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أو أنثى؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك) أخرجه مسلم، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ طه ٥٠، ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ نوح ١٤، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ آل عمران ٦، ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقًا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٍ﴾ الزمر ٦.

وقد ثبت أن الإنسان مخلوق، كما أخبر الله: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ الطارق ٧، وليس من الصلب والترائب، إنها الدقة المتناهية، إذ تتكون الخصية والمبيض من الحدبة التناسلية بين العمود الفقرى وهو الصلب، والأضلاع وهى الترائب، ثم تنزل الخصية فى كيس الصفن خارج الجسم، بينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة.

والنظر فى الإنسان كيف بدأ من نطفة تستقذرها الفطر السليمة، ويستهجنها الحس السامى، ثم كيف تعبر بهذه الأطوار خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث.

ثم كيف ﴿نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلًا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٍ شَيۡـًٔا﴾ الحج ٥.

إن الناظر المتأمل فى هذه الأطوار يرى حياة وخلقاً، ثم موتاً ثم حياة وخلقاً طوراً من بعد طوراً، فيذهب من نفسه الريب وينمحى الشك، وتثبت القدرة العلية فى تصويرها وإبداعها، وينجلى البعث والنشور، ويسطع فى القلب ذلك النور ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إبراهيم ١٠، ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ الطارق ٨-١٠.

إن كل هذا الخلق والتكوين الذى تصنعه القدرة العلية يتم فى أضيق مكان وأظلم نقطة فى العالم، إنها تتم فى الرحم الذى قال الله تعالى فى شأن صلة الأرحام: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ النساء ١، والتى يقول لها وقد أخذت بحقوى الرحمن: (لقد شققت لك اسماً من اسمى فمن وصلك وصلته ومن قطعك قطعته).

وهذه الإشارة تذكر عقب الخلق والتكوين كما فى مطالع سورة النساء حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ النساء ١.

كيف جعل سبحانه النطفة وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم جعلها مضغة، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث، ولو كشف الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر لك فى النطفة شيئاً بعد شئ، من غير أن ترى المصور ولا آلة ولا قلماً، فهل رأيت مثل ذلك؟!! ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ الزمر ٤.

ويروى أن عمر بن الخطاب لما سمع صدر آية (المؤمنون) إلى قوله تعالى: ﴿خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون ١٤، فقال رسول الله ﷺ: (هكذا نزلت).

خلق ابن آدم من سبع

ويروى أن عمر رضوان الله عليه سأل مشيخة الصحابة عن ليلة القدر فقالوا: الله أعلم، فقال عمر: ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله تبارك وتعالى خلق السماوات سبعاً والأراضين سبعاً، وخلق ابن آدم من سبع، وجعل رزقه فى سبع، فأراها فى ليلة سبع وعشرين، فقال عمر ﷺ: أعجزكم أن تأتوا بمثل ما أتى هذا الغلام التى لم تجتمع شئون رأسه. وهذا الحديث بطوله فى مسند أبى شيبة.

فأراد ابن عباس خلق ابن آدم من سبع بهذه الآية الواردة فى سورة المؤمنين وبقوله: جعل رزقه فى سبع، قوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ عبس ٢٧-٣١، السبع منها لابن آدم، والأب للأنعام. وقيل: القضب والأب للأنعام، والأنعام هى من أعظم رزق ابن آدم.

الخلق من سلالة سلت من كل بقعة

والحق – عز سلطانه – حين يذكر يوم بطن الأم فى كتابه، إنما ليذكر أحبابه بقدرته وعظيم نعمه عليهم، فعرفهم أصلهم لئلا يعجبوا بفعلهم. لقد خلقهم من سلالة سُلت من كل بقعة، فمنهم من طينته من جردة (أرض لا نبات فيها)، أو من سبخة (فيها ملح ونز ولا تكاد تنبت)، أو من سهل أو من وعر، ولذلك اختلفت أخلاقهم.

كذلك بسط عذرهم عند الكافة، فإن المخلوق من طين وماء مهين ماذا ينتظر منه؟! هم من تربة، والفصل للقربة.

قدرته عظيمة علية، قطرة أجزاءها متماثلة، ونطفة أبعاضها متشاكلة، ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عظماً وبعضها شعراً وبعضها ظفراً وبعضها عصباً وبعضها جلداً، وكل جزء بهيئة مخصوصة وكيفية معلومة، ثم الصفات فوق ذلك، فسمع وبصر وفكر وغضب وقدرة وعلم وإرادة وحقد وجود، ويتقاصر عنها الوصف، هيأهم لأحوال عزيزة يظهرها عليهم بعد بلوغهم.

فقوم فى ظل العبودية، وقوم فى تحرر من رق البشرية، وآخرون حققهم بصفات الصمدية ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون ١٤، سوى وأنشأ أحسن المخلوقين من أحسن تقويم.

ولقد ناب عنك فى الثناء على نفسه حين لم يكن ذلك منك، إذ كنت فى مراحل وجودك وأطوار تكوينك فى بطن الأم، كنت لا حول ولا وقوة لك ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ المؤمنون ١٤.

التصوير فى الأرحام

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ آل عمران ٦٦، أى يجعلكم فى صورة بعد صورة، حتى تقوموا فى أحسن تصوير صورة له سبحانه، فمن نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم كسا العظام لحماً، بياناً لعجائب قيوميته التى قومت تلك الأطوار.

﴿فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ الجار والمجرور متعلق بـ يصور، والأرحام جمع رحم، والرحم معلوم، وهو مأخوذ من الرحمة، لأن به يحصل التعاطف والتراحم والتواد ﴿كَيۡفَ﴾ ظرف للتصوير أو حال منه، أى تصوير العبد فى بطن أمه معمول للمشيئة، فقد يشاء أن يكون أبيض أو أسود أو أحمر أو حسناً أو قبيحاً أو شقياً أو سعيداً أو غنياً أو فقيراً، بحسب مشيئته، كما خصصته إرادته فى حضرة علمه.

وقد ورد أن المَلَك يقبض النطفة فى يده وينادى ربه فيقول: مخلق أو غير مخلق؟ ما عمره؟ وما رزقه؟ أذكر أم أنثى؟ فيقضى الله تعالى فيه بما شاء، وفى تلك الآية إشارة إلى أن العبد يجب عليه أن يجاهد نفسه كمال المجاهدة، لينال رضا الله عنه برضاه عن الله، فإن أعظم مقام عند الله تعالى هو مقام الرضا عن الله، ومتى رضى العبد عن الله أعطاه أول عطية وهى كلمة ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ثم أفرده سبحانه بالقرب دون غيره، ومتى قرب الله عبداً وخاطبه، أعانه على ما يحبه الله منه، فكان فرداً من أفراد الوجود، أو بدلاً من أبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام أو صديقاً.

❊ ❊ ❊

كمال العناية الإلهية بالحقيقة الإنسانية

يا أيها الماء المهين من الذى سواك ... ومن الذى فى ظلمة الأحشاء قد والاك
يا نطفة بقرارها قد صورت ... من ذا الذى بحنانةٍ أنشاك
يا صورة من حسنه قد جملت ... من ذا الذى بجماله حلاك
يا أيها الإنسان صرت مقرباً ... من ذا الذى بشهوده رقاك
ومن الذى بـ﴿أَلَسْتُ﴾ أسمعك الندا ... ومن الذى لوصاله ناداك
ومن الذى تعصى ويغفر دائماً ... ومن الذى تنسى ولا ينساك
ومن الذى يدنو إليك بفضله ... وإذا سألت جنابه أرضاك
ومن الذى عند الشدائد يقصدن ... ومن الذى إن تسألن لباك
ومن الذى منح الجميل بفضله ... ومن الذى بتلطف أحياك
ومن الذى شق العيون فأبصرت ... ومن الذى بظهوره أعلاك
ومن الذى غذاك من نعمائه ... ومن الكروب جميعها أنجاك
ومن المجيب إذا سألت بسرعةٍ ... وإذا طلبت ودادَه أعطاك
ومن الذى كشف الحجاب تودُداً ... حتى رأت أنواره عيناك
ومن الذى ملأ الفؤاد بحبِّهِ ... وبقربه عند الصفا ناجاك
ومن الذى أولاك نور يقينه ... وبذكره وشهوده صافاك
فَكِّرْ تراه ظاهراً بجماله ... متنزلاً وهو الذى والاك
بك قد سمعت لك اعترفت فنظرةً ... أعطى بها سيدى جدواك
يا ظاهراً بجماله متوددا ... حلل الرضا يا سيدى نعماك
يا باطناً بكماله ومنزهاً ... أشهد عيون الروح سِرَّ علاك
أنت الولىُّ تولَّنا بحنانةٍ ... حتى نرى حال الصفا معناك
عجباً لنا و﴿أَلَسْتُ﴾ نور مشرق ... نسهو أيا مولاى أو ننساك
والوجه أشرق حولنا بجماله ... وعيوننا قد تشهد الأملاك
تَتَنَزَّلَنْ بتحية من ربِّها ... يا من رأيت جمالنا بشراك
صلِّ على المحبوب نور قلوبنا ... طه الذى بجماله حلاك

الفصل الثانى

الحياة الدنيا

الدنيا

المؤمن إذا ذاق حلاوة الإيمان وعلم شعبه، وفهم أسرار الأوامر والنواهى، ووفقه الله سبحانه وتعالى للتمسك بالعروة الوثقى، وأعانه سبحانه على أن يسير على الصراط المستقيم بنشاط وسخاء وشجاعة وانشراح صدر، وسكون نفس إلى جناب القدس الأعلى، وطمأنينة قلب بالحق، تنكشف له الدنيا على حقيقتها، وعن سر ما خلقت له، فيعمل فيها عمل المتزود منها، المدخر فيها لآجله، الذى يكنز الكنز العظيم لينتفع بما فيه عند الضرورة والحاجة، آخذ منها لوقته ما لابد له منه لحفظ كيانه وآله، بقدر الحاجة التى تلزم من زاد نفسه ولأهله وأولاده، وبلغة تبلغه ما أوجبه عليه مولاه من إغاثة ملهوف، وإجابة سائل، ومعونة مضطر، وتأدية فريضة حج أو جهاد، أو نفقة على من تلزمه، مراقباً فى ذلك الأوجه التى نهجها له الشرع، ملاحظاً أن ذلك عمل لمولاه سبحانه، وتأدية واجب أوجبه الله عليه لنفسه ولغيره، فيكون فى عمله للدنيا عاملاً من عمال الله تعالى، حاضراً فى معية الحق، مجملاً برضاه سبحانه، فى حصون الحفظ وولاية الولى، وتكون الدنيا له ليست دنيا، ولكنها سوق تجارة رابحة، ويكون المؤمن العامل لهذا هو الياسر الفالح فيها، ينتظر الفضل العظيم والفرج القريب (انتظار الفرج عبادة) وبذلك يدوم أُنسه، ويطيب وقته.

العمل فى الدنيا لابد منه

والعمل فى الدنيا واجب لابد منه وليس هو للدنيا، وإنما للآخرة أو لله سبحانه، وأعمال الدنيا قد تقدم على غيرها من العبادات عند المقتضى، كالسعى على المعاش لمن عنده عائلة وأهل، فيكون له أجر أكثر من أجر العابد التارك للتكسب، لأن مقام التوكل على الله سبحانه لا ينافيه العمل للكسب، فرُب عامل فى شئون الدنيا أقرب إلى الله سبحانه لحسن توكله عليه من عابد مشغول القلب بمعاشه، لصفاء قلب الأول وطمأنينته بما يسره الله

سبحانه له من الرزق، وبسطه له من الخير، وقد يكون إصلاح شؤون الدنيا بعمل المنافع العامة، والتفات المسلمين إلى العناية بحفظ دنياهم ونفوسهم بالأموال والصنائع والزراعة والتجارة والعلوم الكونية التى يعدون بها العُدد والعَدد لتجديد السُنة وإعلاء الكلمة وإذلال الكفر وأهله.

واعتزاز المسلمين وتمكينهم فى الأرض بالحق عند الله سبحانه من أفضل الأعمال المقربة لجنابه العلى، مع النية الخالصة والرغبة فيما عنده سبحانه، وكل زمان له مقتضيات بها تفضل بعض الأعمال على بعض، هذا بالنسبة لغير الفرائض اليومية والواجبات المفروضة تعبداً لله سبحانه واستحضاراً لعظمته، فإن شُعب الإيمان تتفاوت بحسب مقتضى الوقت، وقد يعمل العامل عملاً لا يقتضيه الوقت فيرد عليه وربما ضره، كما يفعل الجاهل الذى يجمع الأموال ويتساهل بصحته، مع أن المحافظة على الصحة أولى من جمع المال، وإنما يجمع المال للمحافظة على الصحة، ونحن فى زمانٍ الواجب فيه العمل لإصلاح حال المسلمين مقدم على كل عمل، خشية من أن يتساهل كل فرد ويسعى فى صالحه فيضيع فضل الجماعة، والله سبحانه وتعالى يوفق الجميع لما فيه سعادة الدنيا والآخرة.

حياة الكون وما فوقها

فى حياة الكون لى شوق البيان ... فوقها رشف الطهور من الدنان
فى حياة القرب سر الاجتلا ... لهفتى لشهوده عين العيان
فى حياة القدس محوى عن أنا ... فوقها المجلى تلوح من القرآن
فى حياة الاصطفا شأنى عفا ... أختفى عن كائن أو عن مكان
فوقها الحى العلى يلوح لى ... صح موتى فى حياة الامتنان
كنت حياً كادحاً فى مقصدٍ ... صرت حياً فى ضيا نور الأمان
يختفى عنى التجلى فى الصفا ... تشرق المجلى بلا سور الرهان
سدرتى تخفى ويظهر ظاهر ... من أنا هاء تلوح بلا بيان
كنت صورته لغيرى أولاً ... صرت مجذوباً إليه ولا جنان
يختفى عرش محيط بى لدى ... جذبتى الكبرى ورسمى كالدهان

فوق الاستجلا حضورى غيبتى
لا جنان ولا سماء ولا عنان
ظلمة أخفت ظلال حقيقتى
ظله الأعلى يظلل فى التدان
كيف تبدو سدرتى فى وصلتى
وهى لى فصل يحيزها المبان
صرت لوحاً فيه سر نزوله
حير الأملاك فى معنى البيان
سطر القرآن فيه مبيناً
شاهدته الروح فى حال اقتران
أشرق الدرى فى الأفق العلى
نور الأجواء بالآى الحسان
قدست أرض الحضيض بنوره
فاخرت عرش استوى بنور "كان"
لم يكن ينزل قبيل ظهوره كيف
ينزل بالتجلى فى مكان
ذا نزول للمراد عنايةً
بل وحب فيه يوليه العيان

يا قلب فكر تر الدنيا أباطيلا

يا قلب فكر تر الدنيا أباطيلا
واقرأ أيا قلبى قرآنا وتنزيلا
خل الهوى وادكر فاللهو مفسدة
أقبل على الله تعط الخير مأمولا
الموت يا قلب إن حققت نازلة
لم يبق حياً فخلِّ القال والقيلا
والدار دار بلاءٍ إن رضيت بها
وكيف ترضى بدار البعد مأمولا
دنياك دار فناءٍ لا بقاء لها
أقبل على الله تعط الخير موصولا
الموت عبرة من فازوا بسابقة
من ربهم لم يروا زوراً وتأويلا
فروا إلى الله من دنيا وآخرةٍ
لم يشهدوا عمرهم غيراً وتبديلا
أحياهمو الحب فى شغلٍ بخالقهم
حتى به اتصلوا قرباً وتمثيلا

أنواع الحياة

الحياة الروحانية تظهر بالحال والقال، والحياة الجسمانية تظهر بالحظ والشهوة، فمتى قامت الحجة على أن الإنسان فى حياة روحانية فلا تؤاخذه بسيئاته، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ الأحقاف ١٦، وإذا ظهرت الحياة الجسمانية فى إنسان، فلا تعبأ بحسناته، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ الفرقان ٧.

والحياة القدسية تظهر بالإشارات فى أخفى الخفا من أنوار مجلى الذات، ومتى شهدت فى رجل تلك الحياة فصف له قلبك، وأمسك عنه لسانك، وإن أنكرت أحواله وأعماله بحسب مقامك، وإن لم تستطع أن تسلم له فاجتنبه، فإن من حُرم الذوق والتسليم ربما وقع فى الاعتراض فأصبح غير راض عن الله، ومن حُرم الرضا عن الله حُرم النفع بما حصل.

والحياة الإبليسية تظهر فى الهمم والإرادات، فإذا ظهرت فى إنسان فاجتنبه، وإن أثرت همته وإرادته فى العالم، فإن الله تعالى قد يستدرج من يشاء بما يشاء، وقد ينطق بالحكمة ذو الحياة الإبليسية، لأنه يستمد من سافلين النأى، قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الطلاق ٧، فلا تغتر به.

متى صحت حياة الروح ذكرت الله قائماً وقاعداً ونائماً، لأن الجسم لابُد له من النوم، والروح لا تنام إذا صحت حياتها الروحانية، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ آل عمران ١٩١، من أحياه الله بالحى القيوم لا يموت وإن مات جسده، من مات بالإرادة أحياه الله بالفضل حياة طيبة.

حياة العبد

حياتى مقتضى المثل العالى ... وموتى كى يلوح ضيا الولى
فأحيا مظهراً يجلى ظهوراً ... لرب نوره النور الجلى
حياتى أن أكون له مثالاً ... به استجلاؤه كشف الخفى
وأحيا بعد هذا فى اتحاد ... به ستر المثال لدى الصفى
وفوق الاتحاد فلا مقام ... وقدرى يختفى وأنا الخفى
وفى العلم اللدنى لى انتساب ... بنور إرادة الرب القوى
وكنت مخاطباً فيها وجوداً ... بلا رسم ولا كون دنى
يخاطبنى لأن وجود ذاتى ... جلى فى الخفاء المعنوى
وفى القدر الذى هو سر أمر ... قبيل الخلق لى نور بهى
فكان ولم يكن قبلاً سواه ... وكنت به له العبد الوفى
وقبل العهد والميثاق بدءاً ... حياتى مقتضاها كل حى
فكنت مجرداً فى روض أنسٍ ... من التقييد والمبنى خلى
بإطلاق ولا تعيين يخفى ... ضيا أوصافه حصن الولى
ولكن مقتضى الأسما ألاحت ... ظهورى كى يراه كل شَىْ
مثالاً للجمال وللتجلى ... وصورته وحاناً للروى
وأكمل مظهرٍ ينبى بغيبٍ ... على عن شهود الألمعى
ورمزاً لليدين وزدت معنى ... بنفخته وأصلى من منى
ولى فى النشأة الأولى حياة ... بها شاهدت أنوار الولى
ولى فى النشأة الأخرى وجود ... يحققنى بعهدى الأولى
تصح إعادتى للبدء نوراً ... به أسماؤه تجلى لدى
تجلى لا لأظهر بل ليجلى ... لأهل الاصطفا نوراً جلى
وفوزى أن أشاهد فيه نفسى ... فأشهدنى أنا العبد الدنى
فأجمع حضرتى أعلى وأدنى ... بمحو البين عن عين الصفى

رشفة من طهور العرفان فى إحياء القلوب

قال تعالى: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ البقرة ١٦٤، الحياة أنواع منها حياة المعادن وحياة النباتات وحياة الحيوانات وحياة الأناسى، وكل حياة بنسبتها إلى النوع الحيِّ، فالماء المنزل من السماء يحيى كل تلك الأنواع، وفيه إشارة للعقول أن هذا الماء المنزل من السماء أحيا الله به موات كل تلك الأنواع، فإذا أفنى الله من على وجه الأرض، أعاد حياة الأناسى بماء ينزله من السماء قد بينته فى كتاب " النشأة الثانية" فراجعه، ويكون هذا سبباً فى إحياء بنى آدم للبعث والنشور، وفى هذا الوقت يكون الجمال الإلهى الصرف قد غمر من سبقت لهم الحسنى، ويكون الجلال والقهر قد أوبقا أهل الكفر بالله، أقول لك: الجمال الصرف، لأن جماله سبحانه فى هذا الدار مشوب بالجلال.

وفى قوله: ﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ إشارة إلى الجدب والزلازل وغيرها، وفيه إشارة إلى إحياء القلوب ببعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، وإقامة ورثتهم الذين كانت ساعة واحدة من رجل منهم خيراً من أربعين سنة مطراً، لأن الناس لو فقهوا أن الأمطار تحيى النباتات والحيوانات والجمادات، وأما الماء الذى ينزله الله من سماء القلوب إلى أرض القلوب، فإنه يحيى النفوس فيزكيها، والأرواح فيخلصها من سجن الهياكل، ويحيى العقول فيشهدها جمال آيات الله فى الكائنات، ويحيى الأجسام فيقيمها فى محابه ومراضيه، وبذلك تملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن كانت مُلئت ظلماً وجوراً وشتان بين نور الشمس الذى يبين تلك الآثار المادية وبين نور الله تعالى، الذى يسطع من القلوب العامرة به، فيبين جمال الله، ويشهد عجائب بديع آياته، فيكون العبد المُشاهد فرحاً بفضل الله تعالى ورحمته، أو حاضراً مع الله تعالى أو عنده أو لدنه أو آنساً بالفناء به سبحانه عما سواه.

الفصل الثالث

الجنة العاجلة

الجنة العاجلة هى جنة الرضا والشهود

الجنة معلومة لغة وشرعاً، بينها القرآن المجيد، ولا خلاف بين المسلمين فى الجنة، وإن اختلف بعض من لا ذوق لهم فى أنها هل هى موجودة وأين مكانها؟ وهذا الخلاف مردود على أهله، لأن القرآن أثبت وجودها، وأثبت أنها فى عليين وأن النار فى سجين، بدليل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ المطففين ١٨، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ المطففين ٢٢-٢٣، وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ المطففين ٧، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ الانفطار ١٤، وقد عينت السُنة مكان الجنة فى حديث الإسراء والمعراج، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ النجم ١٣-١٥.

والجنة جنتان، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الرحمن ٤٦، والجنتان: عاجلة وهى لأهل مقام الإحسان، وآجلة وهى لهم ولأهل مقام الإيمان الذين فارقوا الدنيا على الإسلام، فالجنة العاجلة هى جنة الرضا عن الله تعالى، وهى جنة الشهود وطمأنينة القلب بذكر الله تعالى عند كل شأن من الشؤون، والكون كله جنة لأهل الرضا، وهم الذين تنقلب لهم الحقائق لأنهم عند ربهم، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الأنبياء ٦٩، وقال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الشعراء ٦٣.

وما تقول أيها المشتاق إلى الجنة العاجلة فى قوم عند ربهم لهم ما يشاءون، أو تقول فى قوم أعانهم الله تعالى، فجاهدوا فهداهم سبله ،فرفعهم إلى مقام القرب حيث قوله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ البقرة ١١٥، فمن جعل الله لهم المشيئة منحهم المُلك الكبير، ومن جاهدوا فهداهم سبله تفضل عليهم بالنعيم.

فالجنة العاجلة: جنة الأرواح التى تجردت من مقتضيات عناصرها ففرت إلى الله بجاذبة عنايته، وجنة النعيم المقيم لمن خضعوا لسلطان الشريعة فكانت الدنيا سجناً لهم وإن

صرفهم الله فيها أكمل تصريف فى الكون، لأنهم تحت سلطان الشريعة فى تصرفاتهم.

ألق أذن روحك

الجنة تستر من دخلها، فلا يرى ما هو خارجها، ولا يراه من هو خارجها، وهى سر الأخذة الحقية قبل الاصطناع، ومن أخذه الله عنده ضن به على خلقه، فكان من ضنائن الله تعالى، فلا يرى إلا الوجه حيث ولَّى وجهه ولا يراه أحد، يعرف بها حقيقة ما لديه من الله تعالى.

وهم أهل الجنة العاجلة، وهؤلاء لا يحتاجون إلى جنةٍ آجلة، وفى بعض الآثار أنهم يفرون من الجنة ويقولون: تركناها أحوج ما نكون إليها فى الدنيا، فكيف نطلبها ونحن فى غنى بالمحبوب عنها.

الجنة ظهور ظل معانى الصفات مستغرقة لكل المرآة، والمأخوذ اقتطعه الله فى وجود شهوده، وستر شهود وجوده، وهؤلاء كثير فى كل قرن، فمنهم الهائم على وجهه فى القفار، ومنهم المستتر عن الخلق بالملامتية والابتذال، ومنهم الغائب عن المُلك سياحة فى الملكوت، ومنهم العاكف بقلبه على ربه معتزلاً الناس بعد فقد خياله ووهمه، فإن الخلوة لا يأذن بها المرشد لذى خيال أو وهم، ولبس خرقة الملامتية لا يأمر به المرشد إلا لمن حصنه الله تعالى بالآداب الشرعية.

ومنهم المخمور الذى لا يفيق ومنهم ومنهم، وقد فصلت مجمل هذا فيما سبق من الكتب، وكل هؤلاء فى الجنة، يعنى فى الستر.

وفوق ذلك جنة، خذ بأذن السر: أفراد أبدال الرسل الذين هم عشرة رجال أو خمسة أو سبعة هم جنة عالية، وهم الشجر الذى غرسه الحق بيده، وهم المعنيون بسبعين الف حجاب من النور، ستروا عن العقول والأوهام والخيالات بساطعة وميض الأحدية، أو رذاذ غيث الواحدية، أو نور زيت المشكاة المحمدى، قال سبحانه: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ آل عمران ١٦٣، وهناك جنة أعلى لا تفى بها الإشارة ولا تبينها العبارة، وهى تؤخذ بشذرات يبوح بها أهل

الاتحاد فى مقام القهر الوجودى بعد الجذب الفنائى، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الإسراء ٨٥.

مقام الرضا

الرضا يختلف عند أهل المقامات، فالرضا عند المحبوبين المقربين "سرور القلب بمُر القضاء" للتحقق بأكمل مقامات العبودية، لا من حيث أنه مؤلم، بل من حيث أنه يجعله مشاهداً فى نفسه حقيقة معانى العبودية، الذى يشهده معانى تجليات الربوبية، فتحل بالقلب نازلة تلجئه لأن يبتهل مضطراً، والابتهال أكمل حال أكمل العبيد، خصوصاً عن مشاهدة، والرضا عند العشاق المهيمين "سكون القلب بحب جريان الحكم" وبين المشاهدتين كما بين أهليهما. وقد رأى بعض العارفين الذين غلب عليهم الوجد أن الرضا نازلة تنزل على القلب عن مقام الحب، فيكون حالاً عن المحبة.

والحقيقة أن الرضا مقام من أعلى مقامات اليقين، يتصدم القلب منه بصدمات عالية حتى يشهد المُر حلواً والنار برداً وسلاماً والألم لذة، لما ينبعث عن القلب من أحوال مقام الرضا، وإنما كان سرور القلب أرقى من سكونه لتفاوت المشاهدتين، وقد أنكر أهل الحجاب الرضا والمحبة، وإنا لنرى لهم عُذراً فى إنكارهم لأنهم لم يكن لهم نصيب منهما، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وأهل الرضا قسمان: قسم رضى عن الله تعالى وقام بعمل الدنيا وعمل الآخرة طالباً المزيد منهما، وهذا لا ينقص مقام الرضا، وهم خاصة خاصة أهل اليمين، وقسم رضى عن الله تعالى رضاً جعله آنساً بالله فارغ القلب مما سواه وممن سواه، مُقبلاً بكليته عليه منصباً بجملته إليه، وهم المحبوبون المقربون، وقد جهل قوم حقيقة مقام الرضا لغلبة مشاهدة أسرار التوحيد، فظنوا أن الرضا عن الله تعالى يجب أن يكون عن أحكامه وقدرته وإرادته، فلم يروا فعلاً قبيحاً ولا عملاً سيئاً لشهود الكل بقدر الله وحسن تدبيره، وهذا من الجهل بعلم الحكمة. والرضا وإن كان عن كمال مشاهدة التوحيد، فإنه إنما يكون بالمعانى التى تلم بك أو تؤلمك، والتلذذ بشدائد الأعمال فى ذات الله تعالى، من الجهاد والصوم وقيام الليل وبذل

المال، وتحمل الأذى من الخلق، وترك ما لك عليهم، والمبادرة فى إعطاء ما لهم بمزيد، وأن تحسن كل مباح قدم لك من أكل وشرب ولباس وزوجة ودابة ومسكن وفراش وخادم وأجرة عمل وجيران، ويكون الرضا بسروره بكل شئ فى ذاته، مما ينقص ماله أو جاهه أو منزلته أو نسبه أو علمه فى أعين الناس.

الغضب لله عين الرضا عنه سبحانه

وليس الرضا هو التحقق بمشاهدة التوحيد مع جهل الحكمة أو جزائها حتى يرضى بما قبحه الله وذمه وما بغضه ﷺ وكرهه، فيترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصيحة المسلمين، أو يترك طلب الضرورى من الدنيا والمزيد فيها، أو الآخرة والمزيد فيها من المعانى التى هى كمال الرضا عن الله تعالى، أو يترك الإدخار والكسب، وإنما يكون الرضا حقيقة عن المتوكل حقيقة. وليس من الرضا أن يرضى الإنسان بعمل يكرهه الله تعالى، يعمله هو أو يعمله غيره ويظن أن سخطه على عمل المعصية فى نفسه أو فى غيره عدم رضا من الله تعالى، وهو من الجهل بأحكام الله تعالى وبحكمته سبحانه وكيف لا وسيد الراضين ﷺ كان يغضب إذا انتهكت حرمات الله تعالى، وغضبه هو عين الرضا عن الله تعالى، فمن رأى أن الرضا عن الله تعالى أن لا يكره شيئاً أو لا يذم شيئاً مطلقاً، فقد جهل. نعم الرضا عن الله تعالى أن لا تكره شيئاً أو لا تذم شيئاً مما أباحه لك الشرع، أو قدره الله عليك من أنواع البلاء، والرضا عن الله تعالى أن تذم المعصية ومن يعملها ولو كنت عاملها وأن تكره مخالفة الله ورسوله ﷺ والوقوع فيما نهى عنه، ولو كنت أنت الفاعل العامل. وإظهار الفقر لا ينقص الرضا إذا رآه نعمة عليه من الله تعالى، لأن المنع حقيقة من الله إحسان لأنه فى منعه مُعطٍ، لأن المنع حقيقة لا يتحقق إلا فيمن لك عليه شئ أو تستحق منه شيئاً، وهذان المعنيان تنزه الله عنهما فهو فى منعه سبحانه وتعالى مُعطٍ، فيكون رضاك بالمنع كرضاك بالعطاء، لأنهما صفتان من صفاته.

❊ ❊ ❊

فضائل الرضا

قال الله تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ المجادلة ٢٢، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ الرحمن ٦٠، فمن أحسن الرضا عن الله تعالى جازاه الله بالرضا عنه، وقد رفع الله تعالى الرضا على جنات عدن لأنه من أعلى مقامات اليقين، فرفعه على جنات عدن التى هى من أعلى الجنان، كما فضل الذكر على الصلاة فقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ التوبة ٧٢، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، والذكر عند الذاكرين الذين هم أهل الذكر هو المشاهدة. فمشاهدة الله تعالى فى الصلاة أكبر من الصلاة، وإن فسر هذه الآية بعض العارفين بأن معنى ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن الله إذا ذكر العبد كان ذكره أكبر من ذكر العبد لله، واستحسن التأويل الأول، لأن الذكر عند العارفين لا معنى له إلا المشاهدة، فالرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر الأكبر، لأن الذاكرين ذكروه بالمشاهدة فأعطاهم الرضا عنه عز وجل. قال رسول الله ﷺ: (يتجلى لنا ربنا ضاحكاً)، وقد روينا عن النبى حديثاً من طرق أهل البيت: (إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه وإن رضى اصطفاه)، وفى أخبار موسى عليه السلام أن بنى إسرائيل قالوا: سل ربك أمراً إذا فعلناه يرضى به عنا، قال موسى: إلهى قد سمعت ما يقولون، فقال: يا موسى قل لهم يرضون عنى حتى أرضى عنهم. وعن نبينا عليه الصلاة و السلام: (من أحب أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، فإن الله ينزل العبد منه بحيث أنزله من نفسه). عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أمتى أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون كيف شاءوا، فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً، فيقولون: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا الصراط، فيقال لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً، فتقول الملائكة: من أُمة من أنتم؟ فيقولون: من أُمة محمد، فيقولون: ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم فى الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضله ورحمته، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونا نستحى أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: (من

رضى من الله بالقليل من الرزق رضى الله عنه بالقليل من العمل).

وقال بعض علمائنا: أعرف فى الموتى أناساً ينظرون إلى منازلهم من الجنان فى قبورهم يغدى عليهم ويراح من الجنة بكرة وعشياً وهم فى غموم وكروب فى البرزخ لو قسمت على أهل البصرة لماتوا أجمعين، قيل: وما كانت أعمالهم؟ قال: كانوا مسلمين إلا أنهم لم يكن لهم من التوكل ولا من الرضا نصيب. وفى أخبار داود عليه السلام: (ما لأوليائى والهم بالدنيا، إن الهم يذهب حلاوة مناجاتى من قلوبهم) وفى بعضها: (يا داود إياك والاهتمام بالدنيا، محبتى من أوليائى أن يكونوا روحانيين لا يغتمون، إياك والغم ولا تهتم للخير وأنت تريدنى).

الرضا حصن الأمن

رضا عنك حصن الأمن حظوة مطلوبى ... ولم يشغلن قلبى عن المحبوب
ففى السر محبوبى ولى حالة الرضا ... بها يطمئن القلب فى حال تقريبى
رضاى عن الأقدار حلو ومرها ... ولكن مُرَّ الشأن حلو بترغيب
يريدنى جلال الله جل جلاله ... ويشهدنى عبديتى ترهيبى
عبودة كشفٍ عن عيان مؤيد ... بآيات حق فى انبلاج غيوبى
فمنه رضاى عنه منه الرضا عن الـ ... مسارع فى تنفيذ أمر حبيبى
وإنى فى كل الشؤون يلذ لى ... رضا الله عنى فى مقام منيب
ولكننى فى الحضرتين أرى ضيا ... لطيفٍ عطوف بالفتى المجذوب
على رفرف الإحسان يحمل من دعى ... إليه به يحظى بخير نصيب
جمالك حصنى به فى تطورى ... أعذنى إلهى من جلال غروب
إلهى وارض العبد عنك بنعمةٍ ... على العبد تولى من جمال مجيب
أيا رب وامنحنى جمال تنزل ... أنال به منك الشفا مرغوبى
أيا رب أشهدنى جمالك ظاهراً ... لأهلى وأبنائى لكل حبيب
ووسع عطايا منعم متفضلٍ ... من التوب والإحسان والمشروب

الرجوع إلى الله فى الحياة الدنيا

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة ٢٨، الرجوع هو العودة إلى ما صدر منه الراجع، ولما كان الراجع إلى ما كان فيه أولاً من الأمكنة، لابُد أن يفارق كل الآثار التى أبعدته عن مكانه الأول ومشهده الأول، حتى يتحقق الرجوع إلى ما كان عليه، ولما كان الإنسان فى بدئه روحاً مجردة من ملابسة الأجسام، كان فى مقام التجريد متحققاً بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فلا يبلغ هذا المقام إلا أحد اثنين: من مات وفارق الحياة الدنيا فانجلت له الحقائق على ما هى عليه فى نفس الأمر، من أن الله تعالى هو النافع الضار المعطى المانع القابض الباسط، حتى يتحقق بأن لله تسعة وتسعين اسماً ليس له فيها شريك ولا مثيل. ورجل آخر جاهد نفسه فى ذات الله حتى كمل يقيناً وكمالاً أشهده الله به باطن التوحيد ففقه أسرار مقامات التوحيد الإثنى عشر، وهذا الذى بين الله مقامه فى القرآن المجيد. قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، وهو الذى رجع إلى الله فى حياته الدنيا لما وفقه الله له من الجهاد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت ٦٩.

ونهاية الجهاد الأكبر جهاد النفس فى ذات الله، وفى هذا المقام يفر إلى الله بالله تعالى، قال جل جلاله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذاريات ٥٠، فمعنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة ٢٨، الذى فهم منه المجسمة أن له سبحانه مقاماً معلوماً تنزه وتعالى عما يقولون عُلواً كبيراً، وما فهموه دل على أنهم يقيسون بالمشهود الغيب المصون، والمعنى أنه تعالى يقول: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة ٢٨، من وقوفكم عند الأسباب ومن نزوع نفوسكم إلى شهوتها وحظوظها وأطماعها ومن ظلمة الأوهام ومفاسد الخيال، ومن ضلال الآراء إلى ما كنتم عليه فى حال التجريد من ملابسة الحضيض الأسفل لانكشاف الحقائق على ما هى عليه فى نفس الأمر، فيتحقق كل إنسان بحقيقته التى هى العدم قبل أن يوجده الله تعالى، وبالضعف قبل أن يمده الله تعالى بالقوة، والاضطرار إلى الله الذى أقام الأسباب وأمد العالم بواسع الإحسان، وليس المراد الرجوع إلى مكان أو إلى الله الذى هو فى جهة دون جهة، لأنه سبحانه وتعالى ليس له مكان يقصد فيه بل هو قبل المكان وقبل الزمان، كما قال ﷺ: (كان الله ولا شئ

قبله) وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ الروم ٥٤.

فكأن الرجوع إليه سبحانه هو رجوع إلى ما كان عليه الإنسان قبل أن يخلق الأشباح، إذ الأرواح كانت موجودة سابحة فى ملكوت الله، ولكن الأجسام حجبتها عن شهود ما كانت متمتعة به فى حال تجريدها عن الأجسام وملابستها.

وهنا اسمع بأذن قلبك الخطاب جسماً وروحاً، ولما كان الإنسان قبل الجسم روحاً لا يدعى ولا يحتاج إلى دليل ولا ينذره الله، وكل تلك الأحكام والمخاوف والتشنيع والتهديد والبشائر إنما هى خاصة للإنسان الذى هو روح وجسم فكأنه يقول سبحانه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ البقرة ٢٨، قبل أن تنفخ فيكم الروح فأحياكم بنفخة الروح فيكم، وتلك الحياة صادقة أن تكون حياة البشرية مؤيدة بالحياة الروحانية إذا كان الإنسان من أهل الإيمان الكامل، فتكون الحياة تصحح اتصافه بالسمع والبصر والكلام وبالحركة والإرادة، وإذا حرم الإنسان التوفيق والهداية فتكون الحياة تصحح له الحس والحركة والإرادة ولكنه يحرم سماع تسبيح الكائنات ونظر آيات الله فيها ويحرم التوفيق لاتباع رسول الله ﷺ، وإذا فقد الإنسان الحس والحركة والإرادة يقال له مات، كما يقال لمن فقد السمع والبصر والحس والحركة والإرادة الإيمانية ميت، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ الروم ٥٢، فحكم على أهل البعد عن الله بالموت وبالصمم. والحياة الروحانية الخاصة هى التى كانت الأرواح فيها فى صورة ذرية آدم عليه السلام متمتعة بها فى عهد يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الأعراف ١٧٢، فلما أن أحيانا الله الحياة الإنسانية حجبت الروح عن مطالعة هذا الغيب المصون بكثافة الجسم.

فمن جاهد نفسه ألاح الله له هذا النور وأحياه الحياة الروحانية التى يمشى بها فى الناس كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ الأنعام ١٢٢.

وقبل أن نبين تفصيل الحياة الثانية نبين لك بعض إشارات القرآن المجيد: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ البقرة ٢٨، بعد تلك الحجج والدلائل الواضحة ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا﴾ البقرة ٢٨، قبل أن

تشهدوا جمال ربكم ظاهراً جلياً يوم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ الأعراف ١٧٢، وفى هذا اليوم أسمعنا خطابه المقدس بعد أن أشهدنا جماله العلى فقال سبحانه: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ الأعراف ١٧٢-١٧٣، فهذا اليوم يوم الحياة التى يمن الله بها علينا ويذكرنا بها. قال سبحانه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذاريات ٥٥، فمن سبقت لهم الحسنى ذكرهم فذكروا فحضروا فأقبلوا عليه فقبلهم، وبوجهه الجميل واجههم، ومنه سمعوا الخطاب المقدس بآذان أرواحهم، وهذه هى الحياة الأولى.

أما حياة الكون إذا لم يتفضل الله على الإنسان بعيون الإيمان وآذان الإيمان، حتى يتحقق بهذا المشهد العلىّ فليست حياته حياة روحانية. وإنما هى حياة بهائم أو شياطين، وليست هى الحياة التى يمن الله بها على الإنسان ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ البقرة ٢٨، بحرمانكم من القابل لهذا الفيض المقدس، وهذه الموتة هى التى شنع الله بها على من قال فيهم: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الروم ٥٢، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ البقرة ٢٨، أى يحيى من سبقت لهم الحسنى فى هذا الكون، فيتنعمون بما يشتاق إليه أهل الجنة فى الجنة، أو يتمتعون بشهود وجه الله تعالى قال سبحانه: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ البقرة ١١٥، وبالأُنس بالتلقى من حضرة الإلهام، وبما يناله المؤمن الكامل من البهجة بمعية الله فى الدنيا بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ النحل ١٢٨.

وأما أهل الكفر بالله والمنافقون وعصاة الأمة فيحييهم يوم القيامة لتنكشف لهم الحقائق التى كذبوا بها أو نسوها. وعندها يقول كل واحد ممن كذب ﴿يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا﴾ النبأ ٤٠.

وفوق هذا إشارة أخرى فى ﴿يُحْيِيكُمْ﴾ البقرة ٢٨، أى حياة الأنس به على بساط منادمته سبحانه، إذا منَّ عليهم بالحياة الروحانية فى حظيرة القرب بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢-٢٣.

الشهداء وأهل اليقين أحياء عند ربهم

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة ١٥٤.

وقد نهانا الله فى هذه الآية أن نقول عنهم إنهم أموات، وأثبت لهم الحياة عند ربهم والعندية أعلى مقامات القرب لأهل اليقين الكامل من الأمة، وليس فوق هذا المقام إلا مقام رسول الله ﷺ وهو مقام اللدنية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ النمل ٦، ومقام العندية فوق مقعد الصدق قرباً، لأن القوم رضي الله عنهم أعطوا الله الكل فأعطاهم سبحانه الكل، فكانوا فى جواره عنده. ورفع (أَحْيَاءٌ) لأنه خبر لمبتدأ تقديره هم أحياء.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة ١٥٤، أتى بهذه الآية الشريفة حفظاً لقلوب المؤمنين، وقصماً لظهور المنافقين، وكأن متردداً قال: كيف يكونون أحياء بعد أن مزقت أشلاؤهم وعلاهم التراب؟ فقال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة ١٥٤، فمعنى ﴿تَشْعُرُونَ﴾ أى ترون وتشهدون، لأن عيون الرؤوس وعيون العقول، لا تنكشف لها الغيوب المصونة، ولكنها تنكشف لعيون الأرواح من أحباب الله الذين هم عنده. فكم من أحياء يمشون على التراب وقلوبهم سابحة فى ملكوت الله الأعلى، لم تحجبهم عن حبيبهم ضروريات الكون ولا كمالياته، لأن الحقائق انكشفت لهم فتحققوا أن ما فوق الأرض فان، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الرحمن ٢٦، وتحققوا أن الكون من العرش إلى الفرش هالك لا دوام له ولا بقاء، بدليل قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ القصص ٨٨، وقوم وقعت عيون بصائرهم على هذا الغيب المصون، يشهدون مقامات الذين قتلوا فى سبيل الله. ومن كانت همته بطنه وفرجه فهو أضل من الأنعام، فكيف يشهد مقامات أهل الحُب والعلم بالله تعالى؟!

جنة معرفة الله تعالى

إن أشرف العلوم وأجلها وأنفعها ما به نيل السعادتين وخير النشأتين، وهو علم معرفة الإنسان نفسه وحقيقة جوهره وما تتصرف به الأمور حالاً بعد حال، إلى أن يبلغ إلى

قصارى غايته التى هى متمناه، وهى أن يلقى ربه إما فى الدنيا بعين اليقين قبل الموت القهرى بالموت الإرادى، الذى هو كمال تزكية النفس وعلم حقيقة التوحيد.

وإما فى الآخرة بعد فراق الدنيا، قال ﷺ: (من عرف نفسه عرف ربه)، وقال عليه الصلاة والسلام: (إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) وقال الله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ الزمر ٩، وقال سبحانه: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ آل عمران ٧، وقال سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢.

واعلم أيها السالك المسترشد أن هذا الباب من العلم، هو طهور ذوى الألباب، ومعراج الوصول، وعنصر الحكمة، ونور المعرفة، فجاهد نفسك واجتهد فى طلبه من العارفين به، فإنك به تنال شرف الدنيا وسعادة الآخرة.

عين اليقين وحق اليقين

هاتان المرتبتان فيض فضل بلا كسب بعد الرياضات وتزكية النفس.

عين اليقين

هى أن تصير النفس بحيث تشاهد فى المقارن المعانى الروحانية التى تدركها العقول بالبراهين الحقيقية رؤية هى نفس اليقين وخالصه.

حق اليقين

وهى أن تصير النفس بحيث تتصل بالمفارق اتصالاً روحانياً، وتلاقى ذاتها ذاته تلاقياً روحانياً، حتى تصير النفس ملكية تسبح فى فسيح الملكوت الأعلى، فالمراد من الوصول إلى كمال المعرفة الوصول إلى إحدى هاتين المرتبتين، ومرتبة حق اليقين مرتبة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ الأنعام ٧٥، والمراد بالمفارق ما عدا عالم الملك، وهو عالم الملكوت والعزة والجبروت.

حق اليقين

حق اليقين به الحجابُ شهودُ ... والموت بعد القرب منه وجودُ

بعد اليقين الحق بدئى آخرى ... بعد اليقين يصح لى التفريد

حق به ما المثنوية تبدو لى ... فى الاتحاد الحق صح مزيد

مولاى جملنى بحق يقين فى ... حفظ المراتب كى يطيبَ ورود

جمل وجودى الحق بالمعنى التى ... فيها يلوح العبد وهو شهيد

حتى يلوح الوجه فى وجهى التى ... فيها به حق اليقين عهود

عاهدتنى فى البدء قبل تطورى ... عاهدتنى فى الختم أنت مُعيد

والعهد فى ختمى بصورتى التى ... أشْرَقْتَ لى فيها وأنت مجيد

والعهد فى بدئى بمعانى التى ... قد صاغها الخلاق والمعبود

تدلى إلى النسب العلىِّ لدى اجتلا ... معنى الصفات وهيكلى تجديد

والهيكل المشكاة سدرة منتهى ... علم الخلائق والوجودُ جديد

فى هيكلى المصباح صورتك التى ... جمَّلْتَها والهيكل المحدود

وسع الوجود بأسره حال اجتلا ... أخفى المعالم فيه وهو مريد

فيه انطوى كل الوجود إشارة ... نور الغيوب وقد أضاء رشيد

مولاى فاجعل كعبتى الذات التى ... جلت عن التشبيه أنت حميد

مولاى طف بى حولها حتى أرى ... يمناك ألثمها بدا التأييد

مولاى وافتح لى كنوز عوارف ... فى كنز إحسان فأنت ودود

أكرم بنى أحبتى جمِّلْهمو ... بجمال وجهك والعطاء مزيد

❊ ❊ ❊

بعد اليقين شهودى

بعد اليقين شهودى ... فيه فقهت وجودى
وجدت لله لاحت ... دلائل التوحيد
قد ستر العلم عين ... عين اليقين الجديد
بل ستر العين حق ... فى حالة التفريد
جهلتُ تبتُ أنبتُ ... من بعد فك القيود
ويحى وجهلى حجاب ... فيه علانى صدودى
بعد العيان تجلى ... للمظهر المحدود
قد دكه لاح وجه ... يراه كل شهيد
يا نورَ وجهٍ تعالى ... سَتَّرْتَ كلَّ حدود
ألحت لى فِىَّ غيباً ... فى محو ظل البعيد
عاينتُ فِىَّ جمالاً ... فنلتُ خيرَ المزيد
نوران كانا أمامى ... نور اليمين حدودى
فى نسبة الروح بدءاً ... بنور قلبى شهودى
فررت لله ربى ... أتمم ضياءَ معيدى
قامت قيامةُ نفسى ... حتى شهدتُ ورودى
قُتلتُ بالحب حتى ... قد زج بى فى الخلود
يا كون سترت عنى ... بنور ربٍ مُريدٍ
يا هيكلى كنت طيناً ... قد صرتَ نورَ الودود
بدلت يا رب أرضى ... على الوفا بالعهود
بدلت ثم سمائى ... فلاح لى معبودى
الأرض كانت رغاماً ... صارت ضياءَ الحميد
والأرض هيكل جسمى ... قد دكه فى شهودى
أما السما فهى نفسى ... قد بُدلت بالمجيد

في حـــــيـــــث ولـــيـــــت يجلى | وجه لـــــدى تــــأيـــيـــــدى
أحـــاط بـــى الـــوجه حـتـــى | رأيــت مجلى الـــــرشـــيـــــد
مـــــولاى زدنـــا يقـيـنـــــاً | في حـــظـــوة الـتفـــريـــــد
أفـــــرد لـــــذاتـك عـبــــداً | في جــذبـــة الــتـــأكـيـــــد
حـتـــى نـــرى البحـــر نـــوراً | يـــــــــضـــــــئ لى في ورودى
حـــتـــــى نـــــرى الآى تجلى | في الـــبر لـلـــتـــأيـيـــــد
تفـنـــى رســـومـــى ويـبـقـــى | وجــه الـعـلى الـــــــودود

العارف بالله

العارف مقبل على الله سبحانه بكله بعين يقين، عن رسوخ في علم يقين، وجاذب عناية إلهية، فلا يصرفه عن الإقبال على جناب القدس الأعلى شئ من حظ أو هوى أو ملكوت، لأن في ذلك وحشة له، وألم فراق يعتريه يجعله حزين القلب منقبض الصدر نافراً فاراً، ولذلك ترى العارف يفر من كل من لم يشهد فيه مشهداً إلهياً يأنس به، ولذلك قال سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الشعراء ٧٧، وقال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ إبراهيم ٣٦، وقد يفر العارف من نفسه إذا شغلته بمجاهداتها في حظ، فإنه يفر إلى قمم الجبال، حتى لا ترى نفسه ما تتمناه إذا اطمأن إلى الله، فإذا سمعت أن عارفاً ترك العمل أو ترك الطعام وفر إلى القفار، فلا تنكر فإنه يتلذذ من كل مؤلم إذا استأنس في عمل المؤلم بالله سبحانه وتعالى.

وصف العارفين

العــارفـــون لهـم ظهـــرت حقيـقـتهـم | فجـملـتهـم بعلـم الحق خـــشـيـتهـم
بعلـمهـم نفـســهـم علـمـــوا مقـــام علا | فــــأوقفــتهــم على الآداب رهـبــتهـم
عـــرفـــوا نفـــوسهـم ذلاً ومـسـكـنـــة | وقــد حبــاهـم فــدامت فـيه رغبتهم
عكـفـــوا عليـه بـــإخلاص فــواجههـم | بــالـوجه فــانبلجت من ذاك نـشــوتهم

سكروا فطابوا به أنسوا فأنزلهم ... منازل القرب فاتضحت محجتهم
فروا إليه به والوجه مقصدهم ... والعلو والسفل لا تحويه فكرتهم
الله معبودهم وهو المراد لهم ... وقد رأت نوره علنا بصيرتهم
وجنة الخلد لو ظهرت بطلعتها ... لفارقت حسنَها بالزهد همتهم
لاكفء لله يحجبهم فيبعدهم ... أحد تنزه تعلمه سريرتهم
هو الولى تولاهم فحصنهم ... عن العوالم قد رفعت مكانتهم
العرش والفرش والكرسى خلفهمو ... وجنة الخلد والفردوس حيطتهم
لا يخطر الملك والملكوت فى نَفَس ... على قلوبهم والخوفُ شيمتهم
حصن الجلال وسر الكبرياء بدا ... فحصنوا فيه واتضحت هدايتهم
قد قربوا لجناب القدس منزلةً ... رفعت بها بين أهل القرب نسبتهم
فى غيبِ غيبٍ عن الأكوان قد رفعوا ... عن الشؤون وقد وافتك حالتهم
الذل عزهمو والجهل علمهمو ... وخشية الله بهجتهم ولذتهم
رضوا عن الله فى الدنيا فجملهم ... منه بحق يقين فيه نعمتهم
أنسوا بما استوحش الجهال منه وقد ... صحت بدايتهم طابت نهايتهم
لم تستفزهمو الدنيا وبهجتها ... والوجه مشهدهم والكون آيتهم
تدرعوا باليقين الحق واتشحوا ... بالصدق حتى به دامت معيتهم
طلبوا له ﴿أَلَسْتُ﴾ فاهتدوا بهدى ... قرآنه وبه قويت عزيمتهم
ما حيطة الملك والملكوت عندهمو ... إلا منازل سفرٍ آن أوبتهم
ومرجع الكل لله العلى على ... حق اليقين وقد وضحت طريقتهم
لم يلتفت أحد منهم لعاجلةٍ ... والكل لله قد خلصت سريرتهم
شربوا من الراح راح الذكر خمرتهم ... وهدى طه على التحقيق سيرتهم
يا رب صل على طه وعترته ... وآله الغُر من رُفعت مكانتهم

❊ ❊ ❊

حقيقة الموتة الإرادية

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ الكهف ١٩، إشارة إلى سر الحكمة فى السلوك والوصول، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، إذا جذبت الروح قواها الباطنة من قلب ونفس وخيال ووهم وحافظة ومدركة إلى ما تقتضيه مكانتها الروحية بكامل التمثيل والتشبيه، تعطل الحس وأُطفئت نار مقتضى الجسم، وهو مقام الجمع للسالك والفناء للواصل والسُكر للمتمكن، ويكون الجسم فى هذا الحال فى كهف التحفظ من سعير نار الإبليسية ودخان البهيمية ومقتضيات البشرية، خائفاً وجِلاً من أن تعود له الحياة التى تحجبه عما هو مولٍ وجهه صوبه، فإن كانت الجذبة بعامل العقل كان الكهف حساً والعمل جسماً، وإن كانت بعامل الروح والحب كان الكهف رعاية ناتجة عن عناية مؤيدة لولاية، وهم أفراد أهل الإيمان الكامل، ممن تجاوزوا النظر فى الكون وفى النَفْس، وقد علمت كهفهم، وبعثه هذا قيام للجهاد الأكبر لجيش الباطل فيه، لا لجيش الباطل الخارج عنه، لأنه تجاوز هذا المقام بكشف الستار.

الحياة الكونية بعد الموتة الإرادية

قال تعالى: ﴿وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ الكهف ٢٥، جواذب العناية من سابقة الحسنى لا تجعل الإنسان مجاهداً جهاداً يرفع درجته مع المجاهدين فى سبيل الله. ولما كانت العناية إذا سبقت لفئة أو لفرد منحته المزيد من أنواع الرياضات والمجاهدات، حتى يفوز بأرقى مراتب المجاهدين، جذبت أهل الكهف عناية الله التى سبقت، ثم أحياهم سبحانه الحياة الكونية بكل معانيها بعد أن أماتهم الموتة الإرادية بالفناء عن وجودهم الإنسانى إلى الوجود البرزخى، وفى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ الكهف ١٩، أحييناهم الحياة الكونية بلوازمها، ليفيقوا فوقة الوجود فى مقام الشهود، ليحصل لهم الشهود فى مقام الوجود، فى مشاهد المثنوية بعد الاستغراق فى الواحدية التى جذبتهم من حظيرة الملوكية – لأنهم كانوا وزراء – إلى ثرى العبودية، وستر عنهم سبحانه سرين عظيمين: سر العناية الأزلية وسر المشاهد البرزخية، بدليل قوله تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ الكهف ١٩، حتى

يكون الجهاد فى ستر الخصوصية وحجب المراد، ثم فتح فاتحة الجهاد برد حياة النفس الغذائية، فدعتهم الضرورة إلى أن يغذوها بغذائها، فأمروا من يذهب لشراء الخبز بما لديهم من نقود الفضة المشار إليها ﴿بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ﴾ الكهف ١٩، لحكمة هى خاتمة الجهاد الذى نَفَس منه خير من خمسين الف سنة من غيره، لأنهم كانوا عند الله فى أيام الله.

قدر جل جلاله أن يعثر عليهم أهل العصر الحاضر، ليعروهم ما يعروا غيرهم عند الصدمة مع الهلع والجزع، وليعلموا أن قدرة الله صالحة أن تقيم الساعة، بما ظهر لهم من إقامتهم بضع مائة سنة، حتى إذا ماتوا بعد ذلك الموتة العزرائيلية، ماتوا مؤمنين كاملين فى الدنيا قبل الآخرة، لأن كشف أسرار القدرة فى الآخرة لا ينفع من مات غير مؤمن بها فى الدنيا، فظهرت الحكمة وهى أن وعد الله حق، وأن الساعة التى أخبرنا الله بها آتية حقاً، فيموتون مستبشرين بالفوز بوعد الله لأهل طاعته، وهذا سلوك من جذبتهم العناية أزلاً، فبادهتهم العواطف الإلهية، فأحيت لطائف قلوبهم، فجذبوا منهم ومن الكائنات إلى الله تعالى مُحتسين طهور﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذاريات ٥٠.

وكذلك يكون السالك إذا منحه الله الجذبة إلى كهف حصون الشريعة المطهرة، وفى قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ الكهف ٢٥، إشارة إلى أن السالك الفانى عن وجوده الباطل، يفنيه الله تعالى عن الوقوف عند الأسباب، وعن النظر إلى أهلها، غير شاعر بجهاده، لاستغراقه فى الخوف من مقام ربه، قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الرحمن ٤٦، عن حقيقة الدنيا واحتقارها فى نظره، واعتقاد أنها ليست دار البقاء، فإذا بعثهم الله تحفظوا من شر هذا العدو.

وشر عدو يجاهدونه إبليس، والغرور بنسيان الحقيقة الآدمية الناتج عن نسيان الله تعالى وأيامه، فإذا منحوا عناية الله فى هذا الجهاد، برزوا عبيداً لله فى كونهم الأول، فجذبهم الله حتى أقامهم عنده، راضين عنه وهو سبحانه راض عنهم، قال سبحانه: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ المائدة ١١٩، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ مريم ٥٥، وخروجهم من الكهف، ورجوعهم إلى الحياة الإنسانية الفاضلة الكاملة التى هى حياة الجهاد الأكبر جهاد النفس.

قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ الكهف ٢٠، أى إن يظهروا على أحوالكم العلية وأسراركم النورانية، يرجموكم بأباطيل حججهم وظلال حظهم وهواهم.

ولما كانت الحياة البشرية فى أى طور تقتضى النزوع إلى ما يلائمها، لأن القوى استوت، وهذا المبعوث يخشى أن تقوى حجة الباطل فينزع إليها الحس والجسم، ويسكن إليها العقل، فيفوز جيش الباطل على جيش الحق الروحانى، فإنهم دائموا الجهاد، يحنون إلى بدايتهم ويسارعون إلى حصون كهفهم، مع أنهم لا تدعوهم إلى ملابسة الكون والفساد إلا الضرورة التى أوجبتها الشريعة، من مناولة لما لابد لهم منه، وهم مع هذا الجهاد يحافظون على آداب الشريعة، فلا يتناولون من القوت إلا أزكاه وأطيبه، قال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ الكهف ١٩.

وسالك أو واصل لا تسبق إليه يد العناية لتنتشله من وحلة التوحيد فى السالك، ومن بادية الإلحاد فى الواصل، ومن واحة التيه فى المتمكن ربما نسى أو غفل، لأن البشرية لا تفارق أكمل كامل، والبشرية باب هذا السور للعدو اللدود.

حفظنا الله وإياكم يا أخى فى سلوكنا وسيرنا إلى الله تعالى، من ظهور جيش الباطل على جيش الحق، وأمدنا الله بروح منه، يمنحنا بها اليقين الحق، إنه ولى المؤمنين.

من البدء هيمانى إلى الغيبِ فى الغيبِ إلى أبـد الآبـاد فى جـذبـة الحبِ
ولكن أطـوارى تـشير لغـامـض من العلم مكنـون عن الرُّوح والقلب
ففـى البـدء هيمانـى إليه بهيكلى لأنـى رَق للـصفـات بلا شـوب
ويـوم ﴿أَلَسْتُ﴾ لى هـيـام لأن أرى مثـالاً عليـاً للملائك فى القـرب
وفى جنـة الفـردوس رُوحـى هيـامها ظهـورى ليظهر بى عطـاء بلا كـسب
وردى لـسفل الـسفل بعـد تحجبـى ليكـشف لى عـنه بـرسم من الترب
ومـوتـى فى الكـون الـدنـئ إرادة ليجلى لروحى مـا عن الشرق والغرب
أمـوت لأحـيـا فى هـيـام وصبـوة لأمـشـى بين النـاس سلماً بلا حـرب
فـأشهـد فى وجهـى الجميل تنـزلاً تـشـاهـده روحـى بعـاطفـة الجـذب
من البـدء هيمانـى إلى الأبـد الـذى به وجـهه الأعلى يـواجهنـى صـوبـى
وكـيفَ سـيرى والكمالُ مـنـزه عن الحـد والتصـوير فى عـالم الغيب
وقـد سُحتُ فى نفسـى وفى ملكـوته فـأعجـزنـى مـا فِيَّ حـالـة الشرب

الرضوان الأكبر فى الحياة الدنيا

المؤمن بعد تحققه بكمال التصديق بالغيب، وتوفيقه للعمل على طِبق العلم، وقيامه بما أمر الله سبحانه حق القيام، محافظاً على الفرائض كلها، عبادة ومعاملة وأخلاقاً، متجملاً بالقربات النفلية من تلك الأعمال، يكون على مزيد من الله تعالى، فتنكشف لنفسه التى تزكت بالرياضة والمجاهدة والجهاد أسرار الآيات من الكائنات، فيشهد غيوباً عن الحس والعقل، ساطعة أنوارها، قاطعة حججها، قائمة بالحق أدلتها، فيزداد إيماناً حتى يبلغ اليقين، ولديها تنجذب نفسه إلى الجانب القدسى، معرضاً عن جنابه الكونى، فيجمل بشراب الإحسان، ويُعان على الإحسان فيكون مُحسناً.

ويدوم جذبه وأخذه من حس العقل ومنه إلى النفس ومنها إلى الروح الملكية، فيرى

أنوار الملكوت فى السماوات والأرض، ثم تقوى أحواله بواردات الحق، فيكشف الله سبحانه له أنوار الملكوت فى نفسه، فيطيب وقته ويصح حاله، وينتقل إلى مقامات الإحسان، فيرى بعين اليقين أسرار علوم اليقين، ويتحقق بمعرفة نفسه وحقيقة مبتداه ومنتهاه، ويمنح المعونة على عمل القربات فى جميع الآنات، ويكون عاملاً من عمال الله تعالى فى رياض المعية، حتى يشهد التوحيد بعين اليقين، فلا يرى ولا يسمع ولا يحس ولا يجد إلا بالله تعالى عين يقين بيقين، ولديها يكون فى حصون ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الأنعام ٨٢، ويحل عليه الرضوان الأكبر بمواجهة معانى الربوبية لمعانى العبودية، مواجهة سالبة موجبة ماحية مُثبتة الوجه العلىَّ تجاهه، والنور الجلىَّ محيطاً به، فمنحه الرضوان الأكبر، ووصفه لا تفى به العبارة، ولا تصوره العقول، وهو من العلوم المضنون بها، لا تُعلم إلا بتعليم الله سبحانه، ولا تنال إلا بفضل الله تعالى، والله ذو الفضل العظيم.

فى دار الفناء البقاء

آه يا دار الفنا فيك البقا ... ورضا الله وفوز باللقا
فيك نورُ الله محكمُ آيه ... وصراط مستقيم للتُقى
فيك منهاجُ الحبيب المصطفى ... سلم للوصول سهل المرتقى
أنت روض للشهود مجمل ... قد يراه بالصفا من ينتقى
فيك أنوار التجلى أشرقت ... والطهورُ بحانه لمن استقى
فيك آيات وأسرار بها ... حظوة الزلفى نعيم لا شقا

رؤية الله تعالى فى الحياة الدنيا

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ القيامة ٢٢-٢٣، بهذا أثبت الله سبحانه المشاهدة للمؤمنين يوم القيامة، وهذا مقام يناله أهل الكشف ممن قتلهم الحب والكلفة والشوق والوله والصبابة، وذلك فى الدنيا أيضاً، حين لا تستطيع النفس الحبيسة فى الجسد أن تنطلق من سجنها وقيدها، وهكذا لا يظفر بهذه النضرة فى الوجوه والنظرة إلى الرب إلا

العشاق. إن رؤية المؤمنين لربهم فى الدنيا بالقلوب، وفى الآخرة بالانكشاف المنزه عن المقابلة والجهة والمكان، والرؤية نوع من الكشف والعلم للمرئى يخلقه الله تعالى عند مقابلة الحاسة له بأبعاده، فجاز أن يخلق هذا القدر بعينه بغير أن ينقص منه قدر من الإدراك، من غير مقابلة لهذه الحاسة أصلاً، والصوفى يرى أن القلب والعين شئ واحد، فهو يرى بعين قلبه الذى به البصيرة وبه الإيمان والحب.

رؤية الوجه الجميل

نعم رؤية الوجه الجميل مرادى ... ومن نظرةٍ منه أنالُ رشادى
ومن لى بأن أحظى برؤية وجهه ... فأسعد فى الدنيا ويوم معاد
حبيب إذا ما لاح للروح جملت ... بعلم الحقائق غيبِ غيبِ الهادى
حبيب به رُوحى رأت وجهَ ربها ... وأكرمها بالعلم والإمداد
شهودك يا مولاى للروح أنسُها ... حضورك يا مولاى والله إسعادى
فوداً أيا مولاى عطفاً ورحمة ... ونظرة إحسانٍ وخير وداد

الباب الثالث

البرزخ

الفصل الأول

حسن الخاتمة

المسلم مقبل على رب كريم

الموت هو مفارقة كون الفساد والرجوع إلى دار البقاء، وهو نهاية الرحلة وبداية الاتصال بعالم البرزخ، فإذا نزلت علامته تعين على المسلم أن يوصى وهو فى بداية المرض، وأن يحسن ظنه بالله تعالى طامعاً فى عفوه ومغفرته وإحسانه، وأن يعتقد أنه مقبل على رب كريم لا تضره المعاصى ولا تنفعه الطاعات، ويتعين على الذين يتولون خدمته أن يديموا له البشائر بواسع رحمة الله، وعظيم عفوه، وعميم إحسانه، حتى يفرح بلقائه سبحانه، فإذا غمرته سكرة الموت أسمعوه (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تلقيناً، ويقوم بهذا التلقين صالح محبوب له، ويجب أن يمنع عن زيارته أعداؤه ومن صحبوه فى المعاصى، ويجب ألا ترفع الأصوات أمامه فى هذا الوقت باليأس أو بالقنوط أو ما يحزن كقولهم (تترك أولادك لمن) أو (من يقوم بشأن أهلك) من الألفاظ التى تكره الإنسان فى الموت، والأولى قراءة سورة يس وتكرار قوله تعالى: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ يس ٢٦-٢٧.

ومن الرحمة بالميت حال الاحتضار بُعد أقاربه المنزعجين عليه الذين يقولون ويعملون عمل الجاهلية، ليفارق الدنيا فرحاً بلقاء الله تعالى، غير آسف على مفارقة شئ فيها، فإذا انتهى النَفَس الأخير خُتم على عمله وبقى الواجب على أهله وأقاربه.

حالة المؤمن عند لقاء ربه

عند سكرات الموت تحضر ملائكة الرحمة وفى أيديهم حريرة بيضاء، ويبشرون الروح برضوان الله تعالى وحبه جل جلاله فى لقائها ورجوعها إليه، ويقولون لها: ارجعى إلى ربك

راضية مرضية، فتخرج الروح فرحة بلقاء ربها، فتُحمل فى الحريرة البيضاء، وينتشر منها أطيب من ريح المسك يشمه الملائكة وأهل القرب من الله تعالى، فتتناولها الملائكة حتى تصل إلى السماء، فتفتح لها أبواب السماء، ويعجب ملائكة السماء من ريحها، حتى تصل إلى أرواح المؤمنين، فيستقبلونها ببشاشة ومسرة، ويتبادرون إليها ليسألوها عن أهليهم وأقاربهم، ثم يقول بعضهم لبعض: دعوها فإنها كانت فى هم الدنيا، فإذا قالت لهم: إن فلاناً قد مات، فهل جاءكم؟ فيقولون: لم يأتنا، ولكن رُد إلى سجين، فتكون بحسب مقامها، إما فى جوف طير أخضر يرعى فى بساتين الفردوس أو فى عليين أو فى ظلال صور الرحمة حتى تقوم القيامة.

فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا احتضر المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجى راضية مرضياً عنك إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين، فإنهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ فيقولون دعوه فإنه كان فى غم الدنيا، فإذا قال: فلان قد مات ما أتاكم؟ قال: ذهب به إلى أمه الهاوية...).

أحوال القوم عند حلول الموت

للقوم عند حلول الموت أحوال ... تنوعت وهى أمثال وأشكالُ
فمنهمو من يرى الأسماء تطلبه ... ومنهمو من يرى الأملاك والحال
فى ذاك مختلف عند الوجود لما ... تقتضى الحقائق والتفصيل إجمال
ومنهمو من يرى الأرسال مقبلة ... إليه تتحفه والرسل أعمال
ومنهمو من يرى التنزيه يطلبه ... وهو الذى عنده التشبيه إضلال
وكلهم سعدوا والعين واحدة ... وعندهم فى جنان الخلد أشغال
هذا هو الحق لا تبغى به بدلاً ... وهو الصحيح الذى ما فيه إشكال

دعاء

بيمناك فاقبض رُوحَ عبدك مسلماً ... وكن لى يوم العرض مولاى مكرماً
أنب بى إلهى مخلصاً لك نائياً ... عن الغير بغيتى ودنياى صائماً
ومن فتنة الدنيا ومن كل محنة ... أعذنى إلهى كى أكون مسلماً
إليك فأقبل بى منيباً ومخلصاً ... وعندك أنزلنى أكون منعماً
وبدل إلهى كل وزرٍ خطيئةٍ ... لأقبل مشتاقاً إليك مهيماً
وسيلتى ربى البشائر عندما ... يحين مماتى كى أرى الله منعماً
أعذنى من الشيطان نفسى جوارحى ... أيا رب قربنى إليك مكرماً
ومن فتنٍ تعمى تصم فنجنى ... لأخرج من دنياى براً ومسلماً
وهب لى لسان الصدق من بعد ميتتى ... يوالى به إحسان ربى دائماً
وأشهِدْنا قبل الممات إلهَنَا ... جمالك والإحسانَ ربى ملازماً

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، والموت قبل لقاء الله).

قال رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه).

عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) فقلت: يا نبى الله! أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت، فقال: (ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه).

عن شريح بن هانى عن أبى هريرة، قال قال رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب

الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) قال: فأتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين! سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله ﷺ حديثاً، إن كان كذلك فقد هلكنا، فقالت: إن الهالك من هلك بقول رسول الله ﷺ، وما ذاك؟ قال: قال رسول الله ﷺ: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت. فقالت: قد قاله رسول الله ﷺ وليس بالذى تذهب إليه، لكن، إذا شخص البصر، وحشرج الصدر، واقشعر الجلد، وتشنجت الأصابع، فعند ذلك، من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

حسن الظن بالله ثمن الجنة

روى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل وفاته بثلاثة أيام: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله).

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقول: أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى).

قال رسول الله ﷺ: (إن الله يقول: أنا عند ظن عبدى بى، فليظن بى ما شاء).

روى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يموتن أحدكم حتى يحسن الظن بالله، فإن حسن الظن بالله ثمن الجنة).

وروى عن ابن عمر أنه قال: عمود الدين وغاية مجده، وذروة سنامه: حسن الظن بالله، فمن مات منكم وهو يحسن الظن بالله: دخل الجنة (مدلاً) أى منبسطاً لا خوف عليه.

وقال عبد الله بن مسعود: (والله الذى لا إله إلا غيره، لا يحسن أحد الظن بالله إلا أعطاه الله ظنه، وذلك أن الخير بيده).

وذكر ابن المبارك قال: أخبر سفيان أن ابن عباس قال: (إذا رأيتم بالرجل الموت فبشروه، ليلقى ربه وهو حسن الظن به، وإذا كان حياً فخوفوه).

حسن الخاتمة

معلوم أن الإنسان بما ركب فيه من عناصر تقتضى تغيراته، حتى إذا تم اعتبار المثنوية تحقق بأنه لا يصفو نفساً من الأنفاس إلا وهو تحت تأثير تلك التغيرات، فتراه موفقاً للخير مقبلاً على الله بكليته، وأخرى ملتفاً عن الحق سلس القياد للشهوة، حريصاً على الدنيا والسعى لها، ومرة تراه زاهداً ورعاً خاشع القلب خانع الجوارح لله تعالى، وأخرى تراه فى حيرة ودهشة مما يرد عليه من غرائب الآيات وأسرارها، وآناً يكون كافراً جاحداً منكراً.

وكل تلك التأثيرات والانفعالات النفسية خصوصاً إذا كبرت سنه وضعفت قوته، وتحقق الورود على البرزخ، ويخاف الرجل من سوء ذنوبه ومن الحساب يوم لقاء ربه، ويحزن على أولاده وأهله بعد مفارقته إياهم، فلمزيد الفضل من الله تعالى طمأن قلوب من آمنوا به وبآياته، وعملوا الأعمال الصالحة التى بينتها لك فى أول الآية فى قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ البقرة ٦٢، أى أنه تعالى بدل سيئاتهم حسنات، فأمنوا على أنفسهم من الحساب يوم لقائه، وأظهر لهم سبحانه إما بإلهام أو وارد أو بُشرى من ولى عارف، بأن الله يكون ولياً ووكيلاً على أولاده.

وتلك الآية بعد خبر الله تعالى بقوله: ﴿فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ تدل على أن هذه البُشرى من الله تعالى لمن أقامهم الله مقام المخاطبين بكلامه، لأن الله لو منحهم هذا الأجر الذى هو عنده لما خطر على قلوبهم دواعى خوف أو مُقتضيات حزن.

وقد يكون خوف كُمل أولياء الله تعالى أشد من خوف العصاة، لأن أولياء الله تعالى يخافون أن يوقفهم موقف عدل، أو يحجبهم عن شهود جماله العلى، أو يبعدهم عن الأُنس على بساط مؤانسته قدام وجهه، أما العصاة فخوفهم من النار التى تفرق الأجسام.

أما النار التى توقد فى القلوب فمنها خوف العارفين والمقربين، وهى المشار إليها بقوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ الهمزة ٦-٧.

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ البقرة ٦٢، أى لا يحصل لهم حزن، والحزن قبض القلب من توقع ضرر أو

غلبة عدو أو دين، أو من خوف ضياع خير أو مفارقته، والإنسان بعد أن ألف الحياة الدنيا، واعتقد أنه سبب لنفع أهل أو أولاد أو أقارب، إذا ظن أو تحقق مفارقته لهم يحزن فيكون مع كرب الموت كرب تلك الحالة، فيخفف الله عنه شدة الحزن بالبشائر عند الموت بأن الله تعالى يكون وليه ووصيه على من يفارقهم، وفى حالة الصحة يرد على قلبه الثقة بالله تعالى وانتظار النعيم المقيم يوم القيامة فيزول حزنه، وقد وعد الله تعالى أهل الإيمان به بخفى ألطافه فى كل دور من أدوار حياتهم مهما اعتورتهم الأهوال والشدائد.

والمؤمن عند سكرات الموت تتنزل عليه الملائكة وهو فى شديد الخوف وعظيم الحزن، فيقولون له: ما الذى أخافك يا عبد الله؟ فيقول: أخاف ذنوبى وعقوبة ربى، فيقولون له: أبشر بخير، فإن ربك قد غفر لك، وأعد لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من النعيم المقيم.

ويقولون له: علام تحزن؟ فيقول: أحزن على أهلى وأولادى وأقاربى، فيقولون له: يا عبد الله لا تحزن فإن الله وليك عليهم ووكيلك، فيفرح المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ فصلت ٣٠-٣٢.

الفصل الثانى

الحياة البرزخية

متاع البرزخ وخيراته

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ البقرة ٣٦، المستقر محل الإقرار، وهو مدة الحياة الكونية والمدة المحدودة للبرزخ، فإنه المستقر الأخير، وفى قوله: ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ البقرة ٣٦، دليل على أن الرجل إذا مات ودفن متع بما تركه وراءه من علم ينتفع به، أو كتب علمية ألفها، أو أولاد صالحين يدعون له بخير، أو صدقة جارية، فإن كل ذلك يكتب فى صحيفته، ويجعل الله فى قبره من خيراتها، وهو المتعة التى أخبرنا الله بها فى قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ البقرة ٣٦.

دفن المؤمن بجوار أولياء الله الصالحين تبركاً بهم

أخرج أبو سعيد الماليني فى كتاب المؤتلف والمختلف، وأبو بكر الخرائطى فى كتاب القبور، من حديث سفيان الثورى عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن محمد بن الحنفية عن على رضي الله عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن ندفن موتاناً وسط قوم صالحين، فإن الموتى يتأذون بالجار السوء كما يتأذى به الأحياء.

وعن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: (إذا مات لأحدكم الميت فحسنوا كفنه، وعجلوا إنجاز وصيته، وأعمقوا له فى قبره وجنبوه جار السوء) قيل: يا رسول الله: وهل ينفع الجار الصالح فى الآخرة؟ قال: (هل ينفع فى الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: كذلك ينفع فى الآخرة)، ذكره الزمخشرى فى كتاب "ربيع الأبرار"، وأخرجه أبو نعيم الحافظ بإسناده من حديث مالك عن أبيه عن أبى هريرة: قال قال رسول الله ﷺ: (ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين فإن الميت يتأذى بالجار السوء).

من أنواع نعيم القبر

جاء فى حديث البخارى ومسلم: (أنه يفسح له سبعون ذراعاً).

وفى حديث أبى هريرة: (... ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعون، ثم ينور له فيه، ثم يقال: نم. فيقول: أرجع إلى أهلى فأخبرهم، فيقولون: نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك).

وفى حديث أنس: (...ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون).

وفى حديث البراء: (... ويفسح له فى قبره مد بصره).

وفى حديث أبى هريرة وكذا حديث عائشة: (... ثم يفرج له فرجة قبل الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها...).

وفى حديث أبى سعيد: (فيفتح له باب الجنة فيريد أن ينهض إليه فيقال له: اسكن، ويفسح له فى قبره).

قال عطاء الخراسانى: أرحم ما يكون الرب بعبده، إذا دخل قبره وتفرق الناس عنه وأهله، وروى عن ابن عباس مرفوعاً. وقال أبو غالب: كنت أختلف إلى أبى أمامة الباهلى بالشام، فدخلت يوماً على فتى مريض من جيران أبى أمامة وعنده عم له وهو يقول: يا عدو الله، ألم آمرك؟ ألم أنهك؟ فقال الفتى: يا عماه لو أن الله دفعنى إلى والدتى، كيف كانت صانعة بى؟ قال تدخلك الجنة. قال: الله أرحم بى من والدتى، وقبض الفتى، فدخلت القبر مع عمه، فلما أن سواه صاح وفزع، قلت له: مالك؟ فقال: فسح له فى قبره، وملئ نوراً).

قال كعب الأحبار: إذا وضع العبد الصالح فى قبره احتوشته أعماله الصالحة فتجئ ملائكة العذاب من قبل رجليه، فتقول الصلاة: إليكم عنه، فيأتون من قبل رأسه، فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه لله عز وجل فى دار الدنيا فيأتون من قبل جسمه، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله عز

وجل، ولا سبيل لكم عليه. فيأتون من قبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبى، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين، حتى وقعت فى يد الله عز وجل ابتغاء لوجهه، فلا سبيل لكم عليه. قال: فيقال له: نم هنيئاً، طبت حياً وطبت ميتاً.

وفى حديث البراء: (...ويمثل له رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الرائحة فيقول: أبشر بالذى يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول له: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجئ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح..).

وفى حديث سؤال الملكين للمؤمن فى القبر من حديث أبى هريرة وفيه: (... فيقال له: اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس وقد أذنت للغروب، فيقول لهم: دعونى أصلى، فيقولان: إنك ستفعل).

الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم

قال تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران ١٦٩، ولذلك لا يُغسلون ولا يُصلى عليهم، ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة فى شهداء أحد وغيرهم، قال رسول الله ﷺ: (إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على، قالوا: يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ يقولون – بليت – فقال: (إن الله عز وجل حرم الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (الأنبياء أحياء فى قبروهم يصلون).

عن أبى مسعود الأنصارى قال: قال رسول الله ﷺ: (أكثروا الصلاة على فى يوم الجمعة، فإنه ليس يصلى على أحد يوم الجمعة إلا عرضت على صلاته).

عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خلق

آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة، فأكثروا على من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة على، إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء).

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام يصلى فى قبره).

وفى رواية له: قال رسول الله ﷺ: (مررت بموسى ليلة أسرى بى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر).

وقال جابر: رأيتهم يخرجون لى رقاب الرجال كأنهم رجال نوام حتى أصابت المسحاة قدم حمزة فانبعثت دماً، وأن جابر بن عبد الله أخرج أباه عبد الله بن حرام كأنما دفن بالأمس).

عن عبد الرحمن بن أبى صعصعة: (أنه بلغ أن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو الأنصاريين ثم المسلمين كان قد حفر قبرهما، وكان قبرهما مما يلى السيل وكانا فى قبر واحد، وهما ممن استشهد فى يوم أُحد، فحفر عنهما ليغيرا من مكانهما فوجدا لم يتغيرا كأنهما ماتا بالأمس، وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك، فأميطت يده على جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت، وكان بين أُحد وبين حفر قبرهما ست وأربعون سنة).

روى الترمذى فى قصة أصحاب الأخدود: (وأن الغلام الذى قتله الملك دفن)، قال: فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبعه على صدغه كما وضعها حين قتل. قال: حديث حسن غريب، وقصة الأخدود مخرجة فى صحيح مسلم، وكانوا بنجران فى الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ، وقد ذكرت مستوفاه فى (البروج) فى تفسير القرطبى.

وروى عن النبى ﷺ: (المؤذن المحتسب كالمتشحط فى دمه قتيلاً، وإن مات لم يدود فى قبره).

❊ ❊ ❊

الأولياء يقرأون القرآن فى قبروهم

أخرج الترمذى وحسنه الحاكم والبيهقى عن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال النبى ﷺ: (هى المانعة هى المنجية تنجيه من عذاب القبر)، قال أبو القاسم السعدى فى كتاب الإفصاح: هذا تصديق من رسول الله ﷺ بأن الميت يقرأ فى قبره، فإن عبد الله أخبره بذلك وصدقه رسول الله ﷺ.

وأخرج ابن مندة عن طلحة عن عبيد الله قال: أردت ما لى بالغابة فأدركنى الليل فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام فسمعت قراءة من القبر فما سمعت أحسن منها، فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: (ذلك عبد الله، ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة؟ فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم، فلا تزال كذلك حتى إذا طلع الفجر ردت أرواحهم إلى مكانها الذى كانت فيه).

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن إبراهيم أن المهلبى قال: حدثنى الذين كانوا يمرون بالمصر فى الأسحار قالوا: كنا إذا مررنا بجبانة قبر ثابت البنانى سمعنا قراءة القرآن.

وأخرج ابن مندة عن سلمة بن شيبب قال: سمعت أبا حامد الحفار – وكان ثقة ورعاً – قال: دخلت يوم الجمعة المقبرة نصف النهار، فما مررت بقبر إلا سمعت منه قراءة القرأن.

الأولياء يجيبون المؤذن من قبورهم

وأخرج اللالكائى فى السنة عن يحى بن معين قال: قال لى حفار: أعجب ما رأينا من هذه المقابر أنى سمعت من قبر والمؤذن يؤذن وهو يجيبه من القبر).

أريج رائحة المسك والريحان والياسمين تفوح من قبور الصالحين

عن أبى سعيد الخدرى قال: كنت فيمن حفر لسعد بن معاذ قبره بالبقيع وكان يفوح

علينا المسك كلما حفرنا من قبره تراباً حتى انتهينا إلى اللحد).

عن محمد بن شرحبيل بن حسنة قال: أخذ إنسان قبضة تراب من تراب سعد فذهب بها فنظر إليها بعد ذلك فإذا هى مسك.

وقال محمد بن أبى حاتم الوراق: سمعت غالب بن جبريل وهو الذى نزل عليه البخارى بخرتنك قال: وذكر قصة وفاة البخارى وفيها: (... فلما أدرجناه فى أكفانه وصلينا عليه ووضعناه فى حفرته، فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك ودامت أياماً، وجعل الناس يختلفون إلى القبر أياماً يأخذون من ترابه، إلى أن جعلنا عليه خشباً مشبكاً).

وعن المغيرة بن حبيب: (أن عبد الله بن غالب الحرانى لما دفن أصابوا من قبره رائحة المسك).

ومن طريق أبى جعفر السراج عن بعض شيوخه قال: (كشف قبر بقرب الإمام أحمد وإذ على صدر الميت ريحانة تهتز)

عن مسكين بن بكير أن وراداً العجلى لما مات فحمل إلى حفرته، نزلوا ليدلوه فى حفرته، فإذا اللحد مفروش بالريحان، فأخذ بعضهم من ذلك الريحان، فمكث الناس يفعلون ذلك فأخذه الأمير وفرق خشية الفتنة، ففقده الأمير من منزله لا يدرى كيف ذهب.

عن محمد بن مخلد الدورى الحافظ قال: ماتت أمى فنزلت ألحدها، فانفرجت لى فرجة عن قبر بقربها، فإذا رجل عليه أكفان جدد وعلى صدره طاقة ياسمين طرية، فأخذتها فشممتها، فإذا هى أزكى من المسك، وشمها جماعة كانوا معى، ثم رددتها إلى موضعها وسددت الفرجة.

توالى الخيرات المعنوية والحسية على الشهداء فى البرزخ

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ البقرة ١٥٤، لأن من قتل فى سبيل الله أقدم على القتل لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من نار ولا رغبة فيما

دونهما، ولكنه أقدم ليلقى الأحبة محمداً ﷺ وحزبه، وهذا الذى نراه قتيلاً بين الصفين لم يمت، ولكنه رفع إلى حظيرة القرب حياً يرزق، لا يمضى نفس من الأنفاس إلا وتتوالى عليه الخيرات المعنوية والحسية، أما الخيرات المعنوية فإنه يكتب له فى صحيفته أعمال كل من هداهم الله تعالى على يده، وأعمال من اهتدوا بهداهم إلى يوم القيامة، وقد يكون فى قبره وعشرات الملايين تعمل بعمله فيكتب الله له أعمالهم فى صحيفته، لا ينقص ذلك من أعمالهم شيئاً، قال ﷺ: (مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) فذلك هو جزاؤهم، وهم بتلك المثابة أحياء يرزقون خير الأرزاق من حيث لا يعلمون.

وكم من رجال قتلوا فى هذا السبيل، ولهم أكبر قسط من عملنا وعلمنا، لأنهم قتلوا فى إعلاء كلمة الله وإحياء سُنة رسوله ﷺ. وهذه هى الشهادة الكبرى، لأنه جاهد نفسه فى ذات الله حتى أفلحت، ثم خرج فاراً إلى الله تعالى حتى قتل بين الصفين.

وقد ورد فى الحديث الصحيح أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر تسكن سدرة المنتهى، وورد أيضاً أنهم يكونون طيوراً خضراً يسبحون فى الجنة يأوون إلى سدرة المنتهى، فهم فى نعيم مقيم فى الدنيا، ومشاهدة الوجه العلى الجميل يوم القيامة، وورد أيضاً أن الله يفتح لهم وهم فى قبورهم باباً يشهدون منه أمكنتهم فى الجنة، فيسألون الله السرعة، كما يفتح للمنافقين والكفار باباً إلى النار فيتمنون تأخير وصولهم إليها.

أما الذين يرجعون إلى أهليهم من المجاهدين فى الصف فإنهم يرجعون بالنصرة والغنيمة والمغفرة.

أما الذين يموتون قبل الملحمة فلهم رزقهم فى البرزخ لا كمن جُندل فى الصف، وإنما عين الله من قتل فى هذا الموقف وخصهم بهذا الفضل العظيم، لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم.

* * *

الحياة الروحانية للشهداء فى البرزخ

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ آل عمران ١٦٩.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ أى لا تظن ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ يوم بدر وأحد ﴿فِى سَبِيلِ﴾ أى فى إعلاء كلمته ونصرة دينه ﴿أَمْوَٰتًا﴾ كالذين يموتون فى غير الجهاد، ويستمر موتهم إلى يوم القيامة حتى ينفخ فى الصور ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ بل هم أحياء عند ربهم.

ولما كانت أنواع الحياة تتفاوت كما قررنا فيما سبق، فإن حياة الجماد تخالف حياة النبات، وحياة النبات تخالف حياة الحيوان، وحياة الحيوان تخالف حياة الإنسان، وحياة الإنسان فى الكون تغاير حياة من استشهد فى سبيل الله، فإنه بقتله فى سبيل الله فقد الحياة الحيوانية، فأعطاه الله تعالى حياة روحانية عنده سبحانه، يتنعم بلوازم تلك الحياة الروحانية عند ربه، مما يرزقه سبحانه به، من الأنواع التى بها سعادة وبهجة وملاذ وأنس الأحياء عند ربهم، فيرزقهم الله تعالى من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

والواجب علينا السمع والطاعة لله ورسوله، تصديقاً لخبره وإيماناً به سبحانه وتعالى، فهم أحياء عند ربهم حياة فوق أن نتصورها، لا حياة من هم عند أنفسهم أو عند الكون، وما تقول فى قوم فروا إلى الله رغبة فى الوصول إليه، وألقوا بأنفسهم على ظبى السيوف وتحت سنابك الخيل، حتى بذلوا آخر نَفَس من أنفاسهم شوقاً إلى نيل رضاه، فصدقوا فيما عاهدوا الله عليه، ووفوا فى بيعهم فقبل سبحانه منهم، وأعطاهم خيراً مما تقربوا به إليه، وهم أحياء يرزقون كما قال تعالى.

وليس للعاقل بعد خبر الله تعالى أن يبحث عن هذا الفضل العظيم، بل الواجب عليه أن يسارع إلى ميدان الجهاد، فيلقى بنفسه كما ألقوا بأنفسهم، ولديها يتكشف الحجاب عما تفضل به العلى الوهاب، فإن العقل يحكم أن أرقى الحيوانات لا تدرك ملاذ الحياة الإنسانية، وهى المشهودة المسموعة الملموسة لها فكيف تدرك حياة من عند ربنا؟ حياة من استشهد فى سبيل الله فأحياه الله ورزقه وفرحه؟ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ

بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ النساء ٦٥.

قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آل عمران ١٧٠.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ الفرح هو السرور الذى تدعوا إلى سوابغ النعم والفوز بالأمل، والمعنى أنهم مسرورون بما آتاهم الله من فضله بقتلهم فى سبيله سبحانه، فإن الله أحياهم الحياة العالية، وتفضل عليهم بخير رزقه الجامع لملاذ الروح والنفس، والعقل والحس، بحسب حياتهم التى أكرمهم الله بها، فكان ما آتاهم الله من تلك الحياة وهذا الرزق موجباً للفرح والمسرة، وكأن الله تعالى يقول: يا عبادى الذين بذلوا أرواحهم وحياتهم فى سبيل إعلاء كلمتى ونصرة لدينى، لأمنحكم حياة روحانية عندى فى دار قدسى، ولأرزقنكم مما به بقاء تلك الحياة أبدياً، ونيل مسراتها وملاذها وسعادتها.

﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ هذه الآية خبر من الله لنا عن شهداء بدر وأُحد، والسبب خاص والحكم عام، فهو خبر عن جميع الشهداء الذين هم أحياء عند ربهم، والمعنى أن الشهداء الذى هم أحياء عند ربهم يرزقون، يطلبون الفرح والمسرة من الله تعالى ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ من إخوانهم الذين تركوهم على ما كانوا عليه من التسليم الأكمل لرسول الله ﷺ ومن المسارعة إلى الجهاد إعلاء لكلمة الله، وتلك المسرة والفرح باستبشارهم بهم، لتحققهم أن إخوانهم لا يزالون محافظين على ما كانوا عليه وهم فى الدار الدنيا، وبتلك الحالة يفوزون بما فاز به الشهداء من الحياة الروحانية، ورزق الله تعالى الذى منه الفوز بفضل الله تعالى وبرضوانه الأكبر، وكمال النعمة بدوام تلك الخيرات أبدية إلى ما لا نهاية، ومعنى ﴿لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ أى لم يقتلوا فى سبيل الله فيفوزوا بما فاز به من قتلوا قبلهم، والفوز متحقق ولكن لا ينال إلا بالشهادة.

﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أن وما دخلت عليه مؤولة بمصدر مجرور بالباء المحذوفة بدل من الذين فى قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم﴾ بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ونفى عنهم سبحانه وتعالى الخوف من لقاء الله تعالى الذى يجعل قلوب أهل الإيمان فى فزع

من الحساب، لتحققهم بالتقصير عن القيام له سبحانه تعظيماً وإجلالاً له تعالى، وهذا الخوف لا يفارق قلوب العارفين بالله. خصوصاً عند الموت إلا إذا طمأن الله قلوبهم بالبشائر، قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يونس ٦٤، ونفى عنهم الحزن على من يفارقونهم وما يفارقون من أهل وولد وآثار، وهذا الحزن أيضاً لا يفارق القلوب إلا بما يتفضل الله به على المؤمن عند موته بالبشائر، منحنا الله هذا الفضل العظيم بإحسانه.

﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ آل عمران ١٧١، يطلبون المسرة والفرح بالنعمة من الله تعالى، كما طلبوا منه المسرة بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والمسرة والفرح بنعمة تتوالى عليهم من الله تعالى.

الموت قبل الموت حياة المجتبين

ظهورك للشهود الاعتبار ... لأنك فى كمال الاقتدار
جلالك جاذب للقرب جذباً ... به حفظ العبودة للقرار
جمالك مثبتٌ فقرى وذلى ... وجهلى سيدى بل واضطرارى
ظهورُك بالشؤون به شهودى ... جلالاً أو جمالاً فى مدارى
وفى حالى جمال أو جلالٍ ... فإنى العبد فى حال افتقارى
عطاؤك فى الجلال جمال قربٍ ... عطاؤك فى الجمال ضيا لسار
وفى موتى حياتى بعد حبى ... حياتى عينُ موتى فى اختيارى
إذا ما متُّ قبل الموت أحيا ... حياة المجتبين بها فخارى
شؤون أظهرت غيباً مصوناً ... تليح صفاته بعد انتظارى
فأشهد قادراً وأرى حكيماً ... تجلى ظاهراً فمحا عثارى
وجسمى راحلاً ويرى مقيماً ... عجيب غفلتى بعد ادكارى
ودار إقامتى فردوسُ ربى ... وأسكن للحضيض وللمثاوى
وعهد ﴿أَلَسۡتُ﴾ أنسى كيف هذا ... وفيه الوجه لاح بلا ستار
وتلك الدار فانية يقيناً ... فدعها تمنحن إحسانَ بارى

دعاء

روح الـــروح آنــس القلـب بـــى — فى جميع الـشـؤون من غير حجب
فى ظهــور الأقــدار هبنــا يقينــاً — واشرح الصــدر بــالــرضــا والحب
فى ظهــور الأقــدار طمئن قلــوبــاً — حَصِّنَنْهَا من مـوجبـات الـشـوب
أشهِـــدنـــا الممات فـضلاً حيـــاةً — أشهــدنــا الحيــاة خير القــرب
علِّـمْـنَـا الـيقـينَ فى كل شـــأنٍ — أشهــدنــا الجمال من غير ريب
واقبـض الــروح بـاليمين وهبنـا — يـا إلهـى اليقين بـالـوصـال ينبـى
واجِهَنِّـى بـالــوجه فى حـال مـوتـى — بــشرنــى بــشــائــراً للـمحب
واعْـصِمَنِّـى عنـد الممات من الـشـ — ـك ارفعَـنِّـى إلى مقـام القـرب
كـى أرى الــوجه فى ممـاتــى وبعثـى — ظــاهــراً بــالجمال لى فى صــوبــى
مقعـد الـصـدق فـاجعلن لى مـأوى — كـى أهنـى بـالــوجهِ فى أنـس ربـى

الفصل الثالث

زيارة أهل البرزخ

زيارة النبى ﷺ وما يستحسن عند الزيارة

هذا الموضوع أكتب فيه لأهل التسليم ممن وفقهم الله تعالى للعمل بوصاياه ﷺ ومعرفة قدر النعمة به ﷺ المؤمنين حقاً، لأنه عمل ينتجه الإيمان الكامل. وإنى والحمد لله على يقين أن كل مسلم يحن لزيارة قبر النبى ﷺ ينمو فى كل نفس، ولكنى أبين الآداب التى تأدب بها الصحابة رضوان الله عنهم والتابعون وأئمة الخير ممن يقتدى بهديهم مبيناً ذلك بأسانيده، وأستحسن كما استحسن أهل العلم كالإمام مالك وغيره أن يقول المتوجه إلى المدينة: توجهت لزيارة النبى ﷺ أو للسلام على النبى ﷺ ويقول عند رجوعه: زرت النبى ﷺ، أو سلمت على النبى ﷺ ولا يقول زرت قبر النبى ﷺ والذى أراه فى استحسان هذا المذهب لأن الناس لم يتوجهوا لزيارة القبر كما يتوجه الناس لزيارة القبور، لأن زيارة القبور للعظة والاعتبار وللدعاء لأهلها والاستغفار لهم، ولكن المزور هنا هو النبى ﷺ فيجب أن يميز الناس بين الزيارتين. وهذا أدب أدب الله به أهل العلم، وكيف لا والمتوجه إلى المدينة يشهد مواطن تنزل الوحى، وأماكن جلوسه ﷺ ومواضع وضع قدمه الشريف، وأُفقاً بورك برفع صوته ﷺ فيه بالقرآن والعلم والأمر والنهى، وروضة ثبت أنها روضة من رياض الجنة، وحظيرة بوركت بمس جسده الشريف، ولذلك فقد ثبت أنه يجب ضرب أكباد الإبل إلى تلك الأماكن.

آداب الصحابة والسلف فى الزيارة

أما آداب الصحابة والسلف فى الزيارة فأبين كما ورد رضوان الله عنهم، عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال النبى ﷺ: (مَنْ زَارَ قَبْرِى وَجَبَتْ لهُ شَفاعتى) وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (مَن زارَنى بِالمَدينَةِ مُحتَسِبًا كُان فى جوارى وكنت له شفيعاً يَومَ القِيامَةِ) وفى حديث آخر: (مَن زارَنى بَعدَ مَوتى فَكَأَنّما زارَنى فى حَياتى) وكره

مالك أن يقال: زرنا قبر النبى ﷺ. وقال ابن أبى فديك: سمعت بعض من أدركت يقول: بلغنا أنه من وقف عند قبر النبى ﷺ فتلا هذه الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ الأحزاب ٥٦، ثم قال صلى الله عليك وسلم يا محمد، ومن يقولها سبعين مرة ناداه مَلَك: صلى الله عليك يا فلان ولم تسقط لك حاجة. وقال بعضهم: رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه افتتح الصلاة، فسلم على النبى ﷺ ثم انصرف. وقال نافع: كان ابن عمر يسلم على القبر رأيته مائة مرة وأكثر يجئ إلى القبر فيقول: السلام على النبى ﷺ، والسلام على أبى بكر، السلام على أبى ثم ينصرف. ورؤى ابن عمر واضعاً يده على مقعد النبى ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه. وعن ابن قسيط والعتبى: كان أصحاب النبى ﷺ، إذا خلا المسجد جبوا رمانة المنبر التى تلى القبر بيامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون. وقال القاضى أبو الوليد الباجى: وعندى أنه يدعو للنبى ﷺ بلفظ الصلاة ولأبى بكر وعمر. وقال ابن حبيب: ويقول إذا دخل مسجد الرسول: باسم الله وسلام على رسول الله، والسلام علينا من ربنا وصلى الله وملائكته على محمد، اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك وجنتك واحفظنى من الشيطان الرجيم. ثم اقصد إلى الروضة وهى ما بين القبر والمنبر فاركع فيها ركعتين قبل وقوفك بالقبر تحمد الله فيها وتسأله تمام ما خرجت إليه والعون عليه، وإن كانت ركعتان فى غير الروضة أجزأتاك وفى الروضة أفضل. وقال ﷺ: (مَا بَيْنَ قَبْرِى وَمِنْبَرِى رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، ومِنْبَرِى عَلَى تُرْعَةٍ مِنْ تُرَعِ الْجَنَّةِ). ثم تقف بالقبر متواضعاً متوقراً فتصلى عليه وتثنى بما يحضرك، وتسلم على أبى بكر وعمر وتدعو لهما، وأكثر من الصلاة فى المسجد النبى ﷺ بالليل والنهار ولا تدع أن تأتى مسجد قباء وقبور الشهداء. وقال مالك فى كتاب محمد: ويسلم على النبى ﷺ إذا دخل وخرج يعنى بالمدينة وفيما بين ذلك قال محمد: وإذا خرج جعل آخر عهده الوقوف بالقبر وكذلك من خرج مسافراً. وروى ابن وهب عن فاطمة بنت النبى ﷺ أن النبى ﷺ قال: (إذا دخلت المسجد فصلى على النبى ﷺ وقولى: اللهم اغفر لى ذنبى وافتح لى أبواب رحمتِك، وإذا خرجت فصلى على النبى ﷺ وقولى: اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبوابَ فضلك).

هذا ما كان عليه أئمة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وما ورد فى ذلك عن رسول الله ﷺ وعمل الصحابة هو النور الذى يجب على كل مسلم أن يقتدى به فى زيارة النبى ﷺ وفى السلام عليه.

شهود أهل الحب الواهين

على أنى لا أنكر على أهل الحب الواهين الذين انجذبت قلوبهم إلى حضرة المعية المحمدية إذا سطعت أنوار بصائرهم فأخفت مشهد الأبصار، فشهدوا بالروح عند دخول المسجد النبوى ما مثله الخيال الصافى من كدورات الأهواء، واستحضره القلب المطمئن من معانى المكانة المحمدية، فحصل الخشوع الممزق لأغشية القلب حتى يصرخ الصارخ ويصعق الصاعق ويغنى المغنى ويهتز الواجد ويبكى العاشق ويتمثل الواصل، فمنهم من يمد يده مُسَلماً، ومنهم من ينحنى مُقبلاً، ومنهم من يلتمس مخاطباً، ومنهم من يشكو مشاهداً، ومنهم من يقبل البشرى، ومنهم من يسمع. كل ذلك مسلَّم لأهله مقبول منهم، لأن مقامات المحبة تتفاوت حتى تنزل السكينة وتحصل الطمأنينة ولديها يكون المؤمن وسطاً. وقد سبق لك تفاوت أعمال أصحاب رسول الله ﷺ فى زيارته صلوات الله وسلامه عليه مما سبق لك من أعمالهم رضى الله عنهم، ومن تدبر قول الإمام مالك رضي الله عنه أن يكره أن يقول: زُرت قبر رسول الله ﷺ، ويجب أن يقال: زُرت رسول الله ﷺ يظهر له جلية هذا الأمر، وإنما ينكر على أهل المحبة من لم يقرأ علومهم ومن لم يتعلم أسرارهم، ومن جهل شيئاً عاداه.

زيارة القبور

تقرر أن زيارة القبور سُنة، وكان قد نهى رسول الله ﷺ عنها فى صدر الإسلام قبل أن تشرق أنوار الحق جلية على القلوب، وتقرير أصول الإسلام، فلما أن انعقدت كل القلوب على الحق، وظهر أن الخلق جميعاً عبيد مقهورون وعباد مربوبون، وعلم كل مسلم أن كل مسلم فى حاجة إلى رحمة الله، وعفوه وفضله وكرمه، اتسع الأمر بعد التشديد، وأمرنا رسول الله ﷺ بزيارة القبور، وزارها صلوات الله وسلامه عليه، وكان فى كل سنة يزور شهداء بدر مرة أو مرتين، ويزور شهداء أُحد فى كل جمعة، وصار أُنس السالكين فى المقابر، فكان سيدنا

عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يأخذ المصحف ويخرج إلى القبور فيجلس بينها، وصارت سُنة أهل السلوك بعده، وهو إمامهم رضي الله عنه فى هذا.

تفاوت سكان القبور

لما كان سكان القبور يتفاوتون، فمنهم من هو فى حاجة إلى الاستغفار له، ومنهم من هو مقبول الشفاعة عند الله مرضى القول عنده، كما قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا﴾ طه ١٠٩، ونحن لا اطلاع لنا على الغيب، ولكن الأحوال والأعمال وألسنة الخلق الأدلة على أن العبد مرضى القول عند الله، مقبول الشفاعة لديه سبحانه وتعالى، فإذا نحن زرنا المقابر فعلينا أن نستغفر وندعو لمن نظن أنه فى حاجة إلى ذلك، ونسأل الله تعالى عند من نعتقد أنهم مقبولون عند الله، قد رضى عنهم ورضى لهم قولاً.

والسُنة أن نتذكر الموت عند زيارة القبور، ونتذكر سكراته القوية، وآلام نزع الروح وجهل العاقبة، فتصغر فى عيوننا الدنيا وتقبح لذتها، ويزول ما فى نفوسنا من اللقس والرعونات، فنعمل للموت ونستعد للقائه، ونلتفت عن الطمع فى الدنيا والغرور بزينتها الفانية.

زيارة قبور الأنبياء والأولياء والرد على منكريها

شنع بعض من لا علم لهم بالسُنة على زائرى قبور أولياء الله بلا حكمة، ولا قصد لإزالة المنكر؛ بل بعناد أدى إلى ضياع الحق، وعناد المنكر والسامع، والحقيقة أن زيارة القبور سنة، وأن الدعاء عند قبور الصالحين الذين يظن الإنسان فيهم أنهم رضى الله عنهم ورضوا عنه ورضى قولهم سنة عملية، دليل ذلك ما ورد فى حديث الإسراء، أن رسول الله ﷺ نزل عند بيت لحم، وعند قبر سيدنا موسى عليه السلام، ووقف فصلَّى أى دعا ، وزار ﷺ القبور، وخرج لزيارة شهداء بدر ووقف فدعا، وورد أنه ﷺ صلى على قبر رجل من الصحابة. والدعاء المأثور لزيارة القبور هو: (السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، اللهم رب هذه الأرواح الباقية والأجساد البالية أدخل عليها روحاً منك وسلاماً منى) هذا

وإن الأرواح لتنتفع بزيارة أهل الصلاح والتقوى، وتنزل الرحمات على أهل القبور، ويفوز الزائر بمغفرة الله إذا زار ولياً من أولياء الله تعالى فى قبره، فإن أولياء الله ليسوا موتى بل هم أحياء عند ربهم يرزقون، لأنهم ماتوا بالله ولله قبل موتة عزرائيل، قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ الأنعام ١٢٢، ومن أحياه الله لا يموت أبداً، وإنما ينتقل إلى دار البرزخ يرزق فيها بتجدد الأعمال الصالحات التى سنها فى حياته الدنيا، والخيرات التى يكتبها الله له بالعلم الذى أبقاه للمسلمين، والنعم التى تتوالى عليه من الله بما أجراه من الصدقات الباقية، فهذا حى عند ربه، له رزق بقدر أرزاق من يعمل بإرشاده، فقد يكونون أكثر المسلمين، فيكون وهو ميت فى قبره له أجر كأجر الأحياء جميعاً لا ينقص ذلك شيئاً من أجورهم، فهل مثل هذا ميت؟ ومن ظن غير ذلك فقد جهل، هذا حى عند ربه يرزق، ومن زاره فاز من الله بخير، وسمع الله دعاءه واستجاب له. هذا إذا كان الزائر كامل الإيمان متحققاً بمشاهد التوحيد، أما إن كان جاهلاً فالأولى – بدل الإنكار عليه – أن نعلمه آداب الزيارة، ونفهمه أسرار التوحيد، ونترك التشنيع عليه لأنه مؤمن مسلم والمسلم قابل للعلم، إلا إذا كان ممن يعمل تلك الأعمال لعاجل الحياة الدنيا، وهم قطاع طريق الله ولا يخفون على المؤمنين.

زيارة قبور الأنبياء والأولياء مرغب فيها

زيارة قبور أولياء الله الذين رضى لهم قولاً مرغب فيها، والدعاء عند قبورهم مستجاب، والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وبالعمل بكتابه، والعمل بسُنة نبيه ورسوله ﷺ، وبأوليائه المقربين مما يدل على مزيد إيمان المؤمن وتواضعه، وسوء ظنه بنفسه واعتقاده أنه صغير فى نظره، وأن المقام الإلهى علىٌّ عن أن يكون مثل هذا الداعى مقبولاً لديه سبحانه، فيتشفع بغيره ممن اجتباهم الله وأحبهم واصطفاهم واختارهم، قال الله تعالى مخبراً عن ملائكته: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الأسراء ٥٧، وقال سبحانه: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ المائدة ٣٥، وقال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ الفرقان ٥٩.

وكم من حاجة قضاها الله تعالى، وكربة فرجها الله تعالى، وشدة أزالها الله تعالى، وفاقة

أبدلها الله يسراً، ومرض أبدله بعافية بدعاء أوليائه، أو بزيارة قبورهم ودعاء الله فيها.

أسباب إنكار الجاهلين بالسنة لزيارة القبور

وإنما أنكر الجاهل بالسُنة زيارة القبور، لجهله باليقين الحاصل فى قلوب عامة المسلمين من كمال التوحيد، واعتقاد أن الضار والنافع هو الله، ومتى انعقد القلب على كمال الإيمان، وحقيقة التوحيد؛ فالأمر واسع لا شبهة فيه، وهل يعتقد مسلم أن مسلماً يأكل ويشرب ويتغوط ويمرض ويموت ينفع أو يضر؟ ولكن لله رجالاً أحبهم وأحب لأجلهم من أحبهم، وقد أثنى الله تعالى على أنصار نبيه ﷺ فقال: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الحشر ٩، فحب المؤمن للمؤمن دليل على كمال محبة الله، وعناية المؤمن بالمؤمن دليل على حسن الثقة بالله، فإذا كان المسلمون لا يحبون أولياء الله أحياءً وأمواتاً، فمن يحبون؟ أيحبون الملوك والأغنياء؟ لعل المنكرين يحبون الملوك والأغنياء، فإذا ماتوا تركوهم، ويعتقدون أن ذلك هو الحق (لا). ولكنا والحمد لله نحب أولياء الله، ونقتدى بهم فى حياتهم، ونبذل ما فى وسعنا لإكرامهم ابتغاء مرضاة الله، فإذا ماتوا دام حبنا، وكثر دعاؤنا لهم وزيارتنا لقبورهم.

الرسول وخلفاؤه يزورون قباء وشهداء أحد

كان ﷺ يزور مسجد قباء كل يوم سبت، ويزور شهداء أُحد، وعمل بسُنته بعده أبو بكر وعمر وغيرهما رضى الله عنهم، وقد أمرنا الله تعالى بشكر الوالدين، وأمرنا رسول الله ﷺ بالصلاة عليهما بعد موتهما فى حديث حسن، والعلماء أنفع من الوالدين، ومن برهم المسارعة لما فيه نفع المسلمين من أحياء ذكراهم ونشر علومهم وإدامة الدعاء لله أن يلحقنا بهم، أو يجعلنا من المتشبهين بهم، فإنما أحببناهم حباً لله ورسوله، ولما جملهم الله به من جمال حبه سبحانه، ومعرفته جل جلاله، والمحافظة على العمل بكتابه وسُنة نبيه، وما وهب سبحانه لهم من الحكمة والبيان، فهم نور رسول الله ﷺ المشرق على أمته، نحبهم أحياءً وأمواتاً، ونفديهم بأنفسنا وأموالنا، ولا نصغى لما يقوله الجاهل لما تفضل الله به علينا على ألسنتهم وأيديهم رضى الله عنهم ونفعنا بهم. هذا مذهبى، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدور إخوتى المؤمنين للعمل به، حتى يكون أولياء الله محبوبين، ومتى كان أولياء الله

محبوبين سارع المسلمون إلى الاقتداء بهديهم، والعمل بما كانوا عليه، وتلقى علومهم النافعة، فهم كما قال ﷺ: (سرج الدنيا ومصابيح الآخرة) فتراهم - وهم أحياء بين الناس - مجهولين غرباء، فإذا انتقلوا إلى الدار الآخرة أحيا الله ذكرهم بين عباده الصالحين، وسارع عباد الله فى تأسيس المساجد، والصدقات، وأوقفوا الأعيان على مساجدهم كل ذلك من إكرام الله لهم فى الدنيا، فكيف يكون إكرام الله لهم فى الآخرة؟ وما من بلد من بلاد الإسلام إلا وبها مسجد باسمهم، أو زاوية بها فقراء المسلمين الذين أقعدهم الجهد يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون. فهم رضى الله عنهم فى حياتهم نور وبركة للمسلمين، وبعد موتهم كنوز وخيرات لفقراء المسلمين، يزورهم منقبض الصدر فيشرح الله صدره، والعاجز عن التكسب فيرزقه الله، وكم من فقراء لا عمل لهم إلا ما يجريه الله لهم على أيدى أهل العقيدة الإيمانية من أغنياء المسلمين. أكتب هذا، وأنا أستغفر الله منه إن كان عن حظ وهوى، غير أنى والحمد لله أعتقد أنه مقصود به وجه الله تعالى، والخير لإخوتى المؤمنين جميعاً، وهو رأى رأيته أعتقد فى نفسى أنه الحق، اللهم إن كان حقاً فانفعنى به وانفع به إخوتى المؤمنين، وإن كان غير ذلك فأسألك أن تحفظنى وإخوتى المؤمنين من عجلتى الفطرية وإعجابى برأيى، واتباع هواى، إنك غفور رحيم تواب كريم.

الرد على إنكار زيارة أهل البيت والأولياء

وهنا غريبة وهى: أن جبريل عليه السلام أنزله ﷺ عند بيت لحم حيث ولد عيسى عليه السلام، فصلى أى دعا، وعند قبر موسى عليه السلام فدعا ﷺ، من هذا نأخذ أن الأماكن تُبارك بما يلامسها، وأن الدعاء يقبل فى الأماكن المباركة، وأنه من السُنة أن الإنسان إذا زار قبر نبى أو ولى أن يصلى فيه، أى يدعو الله تعالى معتقداً أن تلك الأماكن يستجاب فيها الدعاء، كما ورد فى صحيح السنة فى أحاديث الإسراء.

وما ينكره المدعون العلم على العامة من زيارة قبور الأولياء رضوان الله عليهم، يدعون أنهم يعتقدون أن الموتى ينفعون ويضرون، هذا لجهلهم بالسُنة، والحقيقة أن أجهل مسلم لا يعتقد أن ولياً ميتاً فى قبره ينفع ويضر، ولا أن ولياً حياً ينفع أو يضر، لأن ذلك شرك ظاهر،

وإنما ينفع الله على يد من يشاء، ويضر على يد من يشاء، ولكن السُنة بينت لنا أن دعاء الله تعالى فى الأماكن المباركة مستجاب، وأن دعاء أهل الصلاح والتقوى والعلماء مستجاب إذا دعوا لأنفسهم أو لغيرهم.

ولو قيل لك إن ولياً من أولياء الله تعالى دعا الله، فأنزل المطر أو منع الوباء أو شفى المريض أو أغنى الفقير أو هدى العاصى أو انتقم من ظالم أو أهلك معتدياً، فصدق، فإن ذلك كله من السُنة. وإنما تطرف أهل الجدل الجهلاء بالسنة، فأنزلوا عقائد المؤمنين من أهل الصلاح والتقوى فى أن الله يجيب دعاء أوليائه ويقبل سؤالهم، وعقائدهم فى زيارة قبور الأولياء من أنهم إذا دعوا الله فى تلك الأماكن يستجاب لهم، أنزلوها منزلة اعتقادهم الفاسد أن فلاناً الغنى ينفع وفلاناً الحاكم يضر، فنظروا إلى أهل الإيمان بما نظروه فى أنفسهم فأنكروا عليهم.

الحكمة فى زيارة القبور

أهيكلى التذكار حال حضور ... أم ذا لروحى حالة التصوير
وهل الزيارةُ للقبور لأنها ... رمز المشاهد حالة التذكير
والرُّوحُ تشهد غيبَ غيبٍ غامض ... فى الكائنات بسرها التقدير
أمرَ الحبيبُ المصطفى بزيارتى ... تلك القبور بضحوتى وبكورى
هل للحضور مشاهداً ومراقباً ... أم للتأسى بالولى المقبور
واجهتُ حال زيارتى ما لا يُرى ... للغافلين من الصفا والنور
أيقنت أن السر فى الأمر الجلى ... لم يدركن ببيانه التعبير
جسمى يخاف الموت عند زيارتى ... فيتوبُ من داعى الجفا وغرور
والقلب يعقل فى الزيارة حكمة ... وهى الرجوع لمنعم وغفور
والروح تشهد فى الزيارة مشهداً ... فيه البقا لمدبر وقدير
والنفخة العليا ترى الاسم العلى ... يجلى لها بجماله المأثور
سر الزيارة غامض من ذاقه ... تجلى له الأسماء حال حضور

ذكرى ودعاء عند الزيارة

تـذكـرت والـذكـرى تلـيح مقـامـى ... فـأشتـاق فى ختمـى لبـدء رغَـامِـى
أزور قبـــوراً فى مثـــولى بهــا أرى ... معـالم بـدئـى فى حصـون ختـامـى
تـذكــرتُ فى تلك القبــور معـاهـداً ... بهـا كنت قبل الكـون فى إحـرامـى
لدى مشهـد التجريد والروح صورة ... تــدار عليهــا الــراح طهــر مــدام
لدى العهـد يوم ﴿أَلَسْتُ﴾ النـور مشرق ... مـن الـــوجه يــسمعنـــى عَلِىَّ كلام
سمعت وأشهـدنـى لـدى العهـد غيبه ... يجمل نفســى والحبيب أمــامـى
أيـا ســاكنـى تلك القبـور سبقتمـو ... إلى الله حــيـث معـــالم الإكـــرام
يقينـــى أن الله أولاكمـــو الــرضـا ... فمنــى علـيكم فى الحـضـور سلامـى
أيـا رب عفـواً عن جـدودى ووالـدى ... أخـــى سيـــدى والآل والأرحـــام
أيـا رب إحــسـانـاً إلينــا ووسعـة ... وتــوبـاً شفـاً يمحـى بهـا أسقـامـى
هـدى منك يـا هـادٍ أنلنـا به الـصفا ... وفــضلاً لأمـــى من رضـــا العلام
وواسع غفــرانٍ لنـــا ولـســـابق ... لقـــد سبقـــوا فى نعمـــة الإسلام

سلام على أهل القبور ودعاء لله تعالى

سلام عليكـم فى الثــرى والمقــابــر ... رحلتم فقـابلتم ضيـا خير غـافـر
سكنتم ببطن الأرض من بعـد ظهرها ... وفــارقتمـــو الــدنيــا لبر وقــادر
سلام عليكـم من أخ يــرتجــى لكم ... مـن الله غفــرانــاً وخير البـشــائـر
أيـا رب أغـدق واسع العفـو والـرضـا ... على ســاكنـى الأجـداث بعـد السرائـر
أزوركـمـــو أرجـــو من الله رحمـــة ... تعمكمـــو فى جـوف تلك المقــابــر
وأسـأل ربــى العفـو والتـوب والـرضـا ... وكـشفـاً به تحظـى النهـى بـالبصـائـر
أيـــا رب وفقنـــا وزك نفــوسنـــا ... أيــا رب جملنـا بكـشف الـستـائـر
لـنشهـد نـور الـوجه نعطـى سعـادة ... بـدنيــا أيــا مــولاى فى يــوم آخــر
أيـا رب يـوم الموت فـاقبض نفـوسنا ... بيمـينـك وامنحـنـا رضـا خير ذاكــر
أيـا رب وامـنحـنـا عـطيــا ووسعـة ... من الـدين والـدنيـا وخير المفـاخـر

الشهود والأنس والصفا فى البرزخ

أفى برزخى روحى لها مشهد يجلى ... فتأنس حال القرب بالمشهد الأعلى
وهل تشهد الأرواح روحاً تزورها ... نعم وترى الأشباح فضلاً من المولى
وتأنس أرواح المرادين بهجة ... أم لهمو يشتاق من هم بها أَوْلى
تراهم بإطلاق شهوداً لا خفا ... وأهل الصفا فى الله فى العالم الأعلى
ومن عشقوا فى الله دام صفاؤهم ... من العالم الدنيا إلى حظوة المجلى
وأرواح أهل الحب فى البسط والرضا ... ومحبوب رب العرش يعطى فلا يقلى
لهم هيمان فى البرزخ دائم ... يحنون للمحبوب حتى لهم يجلى
لقد عشقوا فى الله عشقاً مطهراً ... عليهم إله العرض حال الصفا صلى

رؤية الأرواح فى حضرة الإطلاق

تراءى لروحى الغيب وجودى ... وسر فنائى فى وجود شهودى
شهدت وقد لاحت معالى الألى ... ترينى الوجود الحق فى تجريدى
تجردتُ فى استحضار رُوح بعينها ... فلاحت لى الأرواحُ فك قيودى
لدى حضرة الإطلاق لاحت معالم ... من الغيب تنبينى بسر جديد
رأيت من الأرواح ما لم أكن أرى ... من البدء فى الإطلاق لا التحديد
أنستُ بمن شاهدتهم من أحبتى ... فرحت بمن واجهت من تفريد
أيا رب هب لى واسع الفضل والعطا ... وكشفاً عياناً من ضيا المعبود
أيا رب أكرمنا بحبك والرضا ... وبالفضل من معط وخير ودود
تنزل لنا حتى نرى الوجه مشرقاً ... يضئ لنا الأرجاء نور معيد
ويكشف عنا الحجب حتى يعمنا ... جمال جميل فى مقام شهود
وعفواً وإحساناً وفضلك والرضا ... ووصلك يا مولاى فى تأييد
وواسع رزق من عطا من عوارفٍ ... ومن نعمة الدنيا وخير ورود
أيا رب جملنى بحبك أحينى ... حياة حبيب فى شهود حميد
لأسعدَ فى الدنيا بفضلك والرضا ... وأسعد فى الأخرى بوصل مجيد

أيها المؤمن آوِ إلى كهف ربك

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ٢١ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ ...﴾ الكهف ٢١-٢٢، آو أيها الجامع بالحقائق إلى كهف ربك بثلاث نفوس إن شئت ورابعهم. أو بخمسة نفوس وسادسهم. أو بسبعة وثامنهم، متى ارتفعت بجذبة التسليم الأولية عن النفس الجمادية والنباتية، وجاهدت حتى قهرت النفس الإبليسية، وأسلك بالثلاث ورابعهم، مسلك المجاهد حتى تزكيها وتمنح الرابعة والخامسة وتخدمك السادسة، فإذا لمحت بعيون الشهود ما فى الكون المحدود من سر الوجود، نفخت فيك السابعة وملكت الثامنة، وتبدلت أرضك بغيرها وسماؤك بغيرها، فنفذت من أقطارها بسلطان شهود ما فيك من باريك، فاتحدت القوى الثمان حتى خضعت للنفخة، ولديها تكون حقاً تحيا فى كهفك.

قال تعالى: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ الكهف ٢٢، فإذا فارقت الحياة بنى عليك المسجد فكتب فى صحيفتك عمل من يعمل بآثارك التى أبقيتها، ويفقه كلماتك التى قلتها، ويحييك الله تعالى نوراً يبين لمن بعدك ما به تتوالى عليك سوابغ إحسانات ربك، وأنت فى الكهف العام هيكلاً، وفى عليين روحاً، فإذا نفخت النفخة الثالثة حيث لم تسمع حسيس الثانية، ولم تصعق مع من صعق بها، جمع الله هيكلك المحفوظ بروحك المجملة، فاتحدت فى الآخرة بأفراد الأخيار، ووصلت بهم ومعهم إلى الستار، بما جملت به من الرضوان الأكبر.

وقد تكون النفس الكلية سبعاً كاسراً، قال ﷺ: (اللهم سلط عليه كلباً من كلابك). يعنى ابن أبى لهب، فلطمه السبع فسمى السبع كلباً، قد تكون كلباً حقيقياً، وهنا انظر كيف بدلت الأرض والسماوات، وكيف برزوا لله الواحد القهار.

الباب الرابع

البعث والحشر

الفصل الأول

البعث ومنازل الآخرة

النفخة الأولى... الشهداء لا يحزنهم الفزع الأكبر

النفخة الأولى فهى فى صور الخلق وهى نفخة الفزع، إذا ظهرت أشراط الساعة من طلوع الشمس من مغربها، ومن الخسف والمسخ والصواعق والزوابع، ويقوى هذا الفزع حتى يموت من فى السماوات ومن فى الأرض إلا الشهداء، فإنهم لا يحصل لهم هذا الفزع، بل يمر عليهم نسيم عليل بليل، فيموتون مشتاقون إلى رضاء ربهم سبحانه، وهم الذين استثناهم الله بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ النمل ٨٧، وقوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ النمل ٨٧، أى انتقلوا من الدنيا أذلاء مرغمين مقهورين لأن تلك النفخة هى الأولى وهى نفخة الفزع التى بعدها نفخة الصعق وبعدها نفخة القيامة وصور النفخة الأولى هو هياكل الناس، لأن كل واحد صور محيط بحقائق لا تحصى، فالهيكل الإنسانى مجمع لكل أنواع الحقائق، ففيه نفخة القدس، وفيه مادة أسفل السافلين، وفيه ما بين ذلك من كل الأنواع، فالإنسان كون صغير والكون كله إنسان كبير.

النفخة الثانية... أهل الاصطفاء لا يسمعون حسيس الصعقة

وقوله سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الزمر ٦٨، هذه هى النفخة الثانية وهى التى تفقد فيها الأرواح الحياة الروحانية حتى لا يبقى ملك مقرب إلا ويفقد تلك الحياة، وهى الصعقة إلا من اصطفاهم الله فأقامهم فى مقام محبته لهم، وبعد تلك النفخة يقول ربنا جل جلاله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ غافر ١٦، ثلاث مرات، فلا يجيبه أحد لفناء من كانوا يدعون مُلك الأشياء ويغترون بما لديهم، وينازعون الربوبية فى المُلك فيجيب نفسه بنفسه سبحانه قائلاً: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ غافر ١٦.

النفخة الثالثة.... إشراق الأرض بنور ربها

أما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾ الزمر ٦٨، فبعد تلك الصعقة وتنفيذ ما قدره جل جلاله من إعادة الإنسان بما أراده فى النشأة الثانية، تنفخ النفخة الثالثة وبها إعادة الحياة الروحانية للأرواح، فتقوم حية ناظرة، والمنظور إليه يختلف بقدر المقامات، فأهل الاصطفاء ينظرون إلى وجه الله العلى، وأهل الاجتباء ينظرون إلى ما أعده لهم سبحانه من النعيم والمسرات، والسالكون ينظرون إلى واسع الرحمة وعميم العفو، والمتهاونون بأحكام الله ينظرون إلى هول ذلك اليوم وشدته، ويشتد هولهم وفزعهم مما أراهم سبحانه من قرب الشمس من رءوسهم ورمى جهنم بشرر كالقصر، وما يصيبهم من خزنة جهنم حتى يصلوا إلى الموقف حيث الصراط والميزان، وحيث يكون القاضى هو الله والشاهد رسله عليهم الصلاة والسلام، وحيث تشهد عليهم جلودهم وجوارحهم، وأمرهم مفوض إلى الله العلى الكبير، وأما أهل الكفر بالله فيساقون إلى جهنم، منهم من يهوى فيها برأسه، ومنهم من يزج فيها، ومنهم ومنهم... أعاذنا الله بوجهه الكريم.

مما تبين لك تفهم معنى إشراق الأرض بنور ربها، وذلك هو تجلى ربنا سبحانه حتى يرى كل مخلوق جماله وجلاله، فلا يبقى فى هذا الموقف أحد إلا ويكمل إيمانه، ويتحقق باليقين الحق، ولكن لا ينفع أهل الكفر إيمانهم فى هذا الوقت قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ السجدة ١٢.

تفاوت المنازل يوم القيامة

الناس فى هذا الوقت أربعة أقسام: قسم يخرجون من القبور لهم أجنحة يطيرون بها إلى مسرات الحياة الثانية، ومنهم من يركب النُجب النورانية، ومنهم من تؤمهم الملائكة إلى الفردوس، وهؤلاء لا يمرون على الصراط ولا يرون الميزان ولا يحزنهم الفزع الأكبر، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١-١٠٣، وهؤلاء المقربون والأبرار وأهل اليمين، وردوا النار فى الدنيا،

وساروا على الصراط فيها، والنار التى وردوها هى مجاهدة أنفسهم فى ذات الله، والصراط الذى اجتازوه هو السير على شريعة النبى ﷺ بكمال اتباعه، والحساب الذى أنجاهم الله منه هو مراقبه الله تعالى فى كل عمل، قال الله تعالى فى الحديث القدسى: (لا وعزتى وجلالى لا أجمع لعبدى أمنين ولا أجمع له أبداً خوفين فإن هو خافنى فى الدنيا أمننى يوم أجمع فيه عبادى عندى فى حظيرة القدس فيدوم له أمنه، وإن هو أمننى فى الدنيا خافنى يوم أجمع فيه عبادى لميقات يوم معلوم، فيدوم له خوفه).

الفرقة الثانية: لا يقام لهم ميزان ولا ينصف لهم صراط وهم الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ الكهف ١٠٥، لأنهم كفروا بالله أو ماتوا على النفاق.

الفرقة الثالثة والرابعة: وهم الذين يحاسبون فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ الانشقاق ٧-٩، قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة ١٠٢، وهم الذين مدحهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آل عمران ١٣٥، وهم عامة أهل اليمين.

والحقيقة أن العصمة لم تثبت إلا لرسول الله ﷺ، والله تعالى أخبرنا أنه يحب التوابين ويحب المطهرين، أساله أن يمنحنا دوام التوبة، ويهب لنا قوة يطهرنا بها من كل خاطر أو وارد يحجبنا عنه سبحانه وتعالى.

والتوبة هى الرجوع من المعاصى إلى الطاعات والتطهير هو مجاهدة النفس لتزكو من فطرها ونزوعها إلى الغفلة والنسيان لتدوم لها المراقبة.

والقسم الرابع: هم الذين يحاسبون حساباً شديداً قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ الانشقاق ١٠-١٥، فأخذ الكتاب من وراء ظهره إنما هو بشماله، لأن يده

اليمنى مغلولة فى عنقه وشماله ملتوية وراء ظهره، فيأخذ كتابه بشماله بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ۝ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الحاقة ٢٥-٣٧.

وأما قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ الانشقاق ١١، أى ينادى بالويل والثبور لما حل به من الهلاك ومن اليأس من النجاة وقوله ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ الانشقاق ١٢، أى يهوى فى السعير، وفى رواية بضم الياء أى تقذفه الملائكة فى السعير، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ﴾ الانشقاق ١٣-١٥، هذا خبر من الله تعالى عما كان عليه المتساهلون بالدين من نسيان يوم القيامة، والإقدام على نيل حظوظهم وشهواتهم، والمسارعة إلى جمع المال من حل وحرام، وحب الانتقام من عباد الله تعالى ومن ظلم الخلق، والسرور باقتراف تلك الخطايا، وعلمه أنه لا يبعث، إذ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أى ظن أن لن يرجع إلى الله تعالى.

ونسيان يوم القيامة موجب لأليم العذاب يوم القيامة، بدليل قوله: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ الجاثية ٣٠، فكيف بمن ظن أنه لن يرجع إلى الله تعالى؟ هذا الظن موجب للخلود فى نار جهنم لأنه إنكار لشئ معلوم من الدين بالضرورة، وذلك كفر أعاذنا الله منه.

أما قوله تعالى ﴿بَلَىٰٓ﴾ فتكذيب للظالم وردع له وزجر وإثبات لرجوعه إلى الله وانقلابه إلى يوم الحساب، فتقرر أن الناس يوم القيامة منهم المقربون، وهم الذين أنجاهم الله وينجى بشفاعتهم يوم القيامة من شاء، وخاصة الأبرار من أهل اليمين، وهم الذين أنجاهم الله تعالى، وعامة أهل اليمين وهم الذين يحاسبون حساباً يسيراً، وأهل الكفر بالله وهم الذين يسحبون على وجوههم فى النار من غير حساب، وعامة أهل الإيمان وهم الذين يحاسبون

ويطهرون فى جهنم، ويخرجهم الله تعالى بفضله ورحمته بعد نفاذ القضاء فيهم، فمنهم من يخرج بشفاعة الشافعين، لأن الذين أقامهم الله شفعاء ينفعون عندما تنفع الشفاعة، ويشفعون فيمن تنفعهم بإلهام يجعله الله فى قلوبهم.

المؤمن فى الآخرة فى سرور وبهجة وفضل وإحسان

المؤمن الذى أمدته العناية الإلهية فآمن بالغيب، وانقاد بتوفيق الله لتأدية الأوامر واجتناب النواهى، مجاهداً نفسه فى طاعة الله تعالى، ناهجاً منهج آل العزائم فى جميع شؤونه، حتى يتطبع على الأكمل من كل شئ بانشراح ونشاط بعد المجاهدة والعناء، إيماناً بالغيب وتسليماً لله تعالى، ورضاء بأحكامه سبحانه، محافظاً على حدوده، قاهراً لحظه وهواه، كابحاً جماح غيه وبغيه، متجافياً بجانبه عما يلائمه مما حظر عليه الشرع، متقللاً من الدنيا بقدر الاستطاعة، عاملاً فيها بقدر الضرورة، صارفاً وجهه عن كل شئ فيها مما يلذ الأنفس وتهواه الطباع، هذا العامل يفوز بربح تلك التجارة، ونعيم ذخائره، وملاذ كنوزه التى سجلها له مولاه، وتفضل عليه بها جزاء حسن معاملته لسيده، وقيامه بحقوق الرعاية فيما استرعاه فى رياض دانية، ونعيم لا يفنى، وحلل من الجمال لا تبلى، فى ظل ظليل، وطهور وسلسبيل، وحور وولدان، لا يأسن ماؤها، ولا يبلى جديدها، ولا تغرب شموسها، ولا تتغير أزهارها، والمؤمن فيها غض نضر، يتجدد شبابه فى كل نفس، ويزداد جماله فى كل لحظة، تتجمل به الفردوس، وتتولى أعماله الملائكة، سرور دائم وبهجة لا تزول وفضل يزيد وإحسان جديد، تحن لها الأرواح وتطيب بها الأشباح، نورها نورها وراحها روحها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ الكهف ١٠٧-١٠٨.

هى الدار فضلُ الله يعطيه من يشا ... نعيمٌ بلا كدح ظهور بلا رشا
هى الراح والريحان والصفو والرضا ... يحل بها من فى العبادة قد نشا
جوار رسول الله أمنٌ ومنة ... لذى نيةٍ فى منهج الصدق قد مشى

* * *

من فضائل رسول الله ﷺ

وأما فضائله عليه الصلاة والسلام وخصوصياته، فجلت أن تدانى أو يقوم بها وصف واصف، أو توضح بألسنة أهل البيان مهما أوتوا من كشف وتبيان. وهنا أردت أن تستبين بعض مقاماته ﷺ، فقارن بينه وبين مقامات الرسل وما أعطاه وأعطاهم الله، وما خصه وخصهم به جل جلاله، تشرق لك شمس فرديته ﷺ، ومطلوبيته ومحبوبيته لذات الحق تبارك وتعالى.

ونحن إن أردنا أن نبين فضائل هذا الحبيب الأعظم ﷺ، فهذه الرسالة وعشرات الألوف من أمثالها لا تحصيها عداً، ولا تفى بحاجة الوصف، بل الوصف نفسه يقصر عن ما خصه الله به من المزايا، وما شرفه على سائر خلقه.

على أن ذلك القصور فى هذا الجانب الأعظم، لا يمنعنا من أن نذكر رشفة من بحر فضله وبارقة من سواطع مقامه على قدر ما تسع العقول وتفهم الأرواح.

من فضائل رسول الله ﷺ أنه أعطى الكوثر

قال الله تعالى مخاطباً حبيبه ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ الكوثر ١، بين الله تعالى فى خطابه هذا قدر حبيبه، وما أكرمه به وفضله على سائر أنبيائه ورسله، والكوثر لغة هو المفرط فى الكثرة، وقد فسر العلماء الكوثر بمعان كثيرة، والذى عليه جمهور السلف الصالح أنه نهر فى الجنة، روى أنس عن النبى ﷺ قال: (رأيت نهراً فى الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فضربت بيدى إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر، فقلت: ما هذا؟ قيل: الكوثر الذى أعطاك الله)، وقال ﷺ: (الكوثر نهر وعدنيه ربى فيه خير كثير).

وقال بعض المفسرين الكوثر آل بيته ﷺ، وقد نزلت الآية رداً على من عابه ﷺ من الكفار بأن لا أولاد له، فالمعنى أن الله تعالى أعطاه نسلاً عظيماً يحفظون سُنته ويجددون شريعته، وبارك سبحانه فيهم فلم يخل منهم زمان ولا مكان، مع ما لاقوا من القتل والاضطهاد، وكان منهم العلماء والحكماء والخلفاء والفاتحون.

وقال آخرون: الكوثر علماء أمته، فإنهم مصابيح الأمة وهدايتها وهم الخير الكثير، لأنهم كما قال ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء).

وقالوا: الكوثر هو النبوة، وهى لا شك الخير الوفير لأنها المنزلة الثانية بعد الربوبية، ولذلك قرن سبحانه وتعالى اسم حبيبه ﷺ باسمه فى كثير من آيات الكتاب، وأردف طاعته ﷺ بطاعة الله تعالى، وعلق محبته سبحانه على اتباعه ﷺ فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ النساء ٨٠، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الفتح ١٠، وقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ آل عمران ٣١، وكفاه ﷺ شرفاً أنه المبعوث آخر الأنبياء والمذكور قبلهم، بل سيدهم، وخيرة الله تعالى منهم الذى واثقهم الإيمان به ونصرته منذ أن خلقهم فسمعوا وأطاعوا.

وقالوا: الكوثر هو القرآن. وقالوا: الكوثر هو الإسلام. وقال فريق: هو المقام المحمود وشفاعته ﷺ فى أهل الكبائر من أمته.

و قال آخرون: هو ما اختصه الله به من الفضائل والأخلاق والشمائل، إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة.

من فضله ﷺ أنه أعطى الحوض المورود

قال النبى ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض) عن أبى ذر، قال: قلت: يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: (والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكوكبها ألا فى الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ، آخر ما عليه، يشخب فيه ميزابان من الجنة، من شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله، ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل).

قال رسول الله ﷺ: (حوضى مسيرة شهر وزواياه سواء وماؤه أبيض من الورق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، فمن شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً).

قال رسول الله ﷺ: (إنى لبعقر حوضى أذود الناس لأهل اليمين، أضرب بعصاى حتى يرفض عليهم) فسئل عن عرضه فقال: (من مقامى إلى عمان) وسئل عن شرابه فقال: (أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب، والآخر من ورق).

قال النبى ﷺ: (أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب، ومن شرب لم يظمأ أبداً، وليردن علىَّ أقوام أعرفهم ويعرفونى، ثم يحال بينى وبينهم).

قال رسول الله ﷺ: (إنى فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الآن، وإنى قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض- أو مفاتيح الأرض- وإنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى، ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها).

من فضائله ﷺ الشفاعة العظمى

١ الشفاعة فى القرأن

اختلاف العلماء فى الشفاعة لفظى، فإن كل واحد منهم حكم بقدر ما فهم، فمن فهم قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ المدثر ٤٨، أنكر الشفاعة لما يعلمه من عظمة الله وكبريائه وجلاله، ومن رهبة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم بقدر علمهم به، ولكن الآية خاصة بمخصوصين؛ لأن الله تعالى يخاطب قوماً بأعيانهم، وهؤلاء هم أعداء الله وأعداء رسله عليهم السلام، وهذه الآية فى سياق قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ المدثر ٣٨.

ومن فهم معنى قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ الضحى ٥، وكلنا نعلم أن رسول الله ﷺ يرضيه أن يرحم الله كل من مات على الإسلام، ونعلم أن الله تعالى أخبر عن نبيه ﷺ بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ التوبة ١٢٨، وبقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧، وتصور معنى تلك الآيات اطمأن قلبه إلى الإيقان بشفاعة سيد المرسلين.

ومن فهم قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ البقرة ٢٥٥، تحقق أن الله تعالى يقبل شفاعة الشافعين فى أهل النار إذا أُذن لهم بالشفاعة، ومن يرى إنكار الشفاعة مطلقاً أخطأ.

٢ الشفاعة فى الأحاديث

والحجة بعد ما بيناه ما ورد عن رسول الله ﷺ من الأحاديث الصحيحة على شرط الشيخين أو شرط غيرهما ممن ثبتت عدالتهم.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً) أخرجه الثلاثة والترمذى.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) أخرجه أبو داود والترمذى.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون: اشفع لذريتك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله تعالى، فيؤتى بموسى عليه السلام فيقول: لست لها ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله تعالى وكلمته فيؤتى بعيسى عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ، فيأتون فأقول: أنا لها، فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لى، فأقوم بين يديه فأحمده بمحامد لا أقدر عليها الآن يلهمنيها الله، ثم أخرُ لربى ساجداً فيقول: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقول: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال لى: مثل الأولى فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل، ثم أعود إلى ربى فأفعل كما فعلت، فيقال لى: ارفع رأسك مثل الأولى، فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: انطلق فمن كان فى قلبه أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربى فى الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرُّ له ساجداً، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأقول: يا ربى ائذن لى فيمن

قال: لا إله إلا الله، قال: ليس ذلك لك، ولكن وعزتى وجلالى وكبريائى وعظمتى لأخرجن منها من قال: لا إله إلا الله) أخرجه الشيخان.

ووردت أحاديث أخرى كثيرة فى الشفاعة ولكنا أحببنا أن نورد الأحاديث التى تقوم بها الحجة مما ورد بصحيح البخارى ومسلم، أو بصحيح غيرهما وعلى شرطهما.

المقام المحمود

قف أيها العقل عند الأدب لحضرة الربوبية، وسلم تسلم، فالأمر فوق مقدارك، وليس لك الحكم على ربك، وإنما أنت حاكم على ما فيك وما حولك تدبيراً وتقديراً.

واسمع بأذن القلب، قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ الإسراء ٧٩، يعنى أنه جل جلاله يبعثه ﷺ مقاماً يحمده فيه العالم أجمع، والعالم لا يحمدون ولا يشكرون إلا من نالوا به خيراً عظيماً، وما هو هذا الخير يوم القيامة؟ هو الخير الذى يحتاج إليه كل نوع من أنواع العالم؛ فنجاة العصاة من النار خير عظيم لهم، ودخول أهل السيئات الجنة فضل عظيم، ورفعه درجات أهل الإيمان فى الفردوس الأعلى فضل عظيم، ووصول أهل المجاهدات إلى مقعد صدق فضل عظيم، ونيل أهل المشاهدات رؤية الله جل جلاله فضل عظيم، وجلوس المتحابين فى الله على منابر من نور قدام عرش الرحمن فضل عظيم، وفوق ذلك من علىِّ المقامات ما لا تفى به عبارة ولا تبينه إشارة، كل ذلك الفضل العظيم بشفاعة الحبيب المصطفى فى الآخرة، وبتوفيق الله لنا بكمال اتباعه ﷺ فى الدنيا، وهذا هو المقام المحمود الذى يحمده عليه العالم أجمع.

ومن ظن أن الشفاعة منازعة الله تعالى فى الألوهية أخطأ؛ وإنما هو الفضل العظيم يظهره الله على يد من شاء ويعطيه لمن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

فضائل الأمة المحمدية

وقد أنزل الله تعالى أمة حبيبه ومصطفاه منزلة الرسل فى كل مقاماتهم، فكأنه قال تعالى للرسل: اعملوا ولا حرج. لعصمتهم.

وقال لنا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج ٧٨، وأثبت للرسل الشهادة على الناس يوم القيامة وأثبتها لنا: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ البقرة ١٤٣.

وواثق الرسل له ﷺ وأثبت أنه بايعنا بنفسه، وبين للرسل بطريق الوحى وأبقى فينا هذا المقام، مقام البيان ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ النساء ٨٤، وأثبت الخيرية للرسل وأثبتها لنا، انظر بعين عقلك لما أقول، فإن إثبات الخيرية للرسل بالوحى، وإثباتها لنا بطريق الإلهام، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ آل عمران ١١٠، وهى وظيفة الرسل، فكما أقامهم صلوات الله عليهم مقامه ﷺ، أقامنا نحن مقامه.

انتسخت شرائع الرسل وشريعته باقية لم تنسخ ولن تنسخ إن شاء الله تعالى، وهذا يدل على بقائه محفوظاً فينا، ونعوذ بالله من زمان نفقد فيه رسول الله ﷺ بياناً وتعليماً وعملاً وحالاً، قال سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ الحجرات ٧، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ آل عمران ١٤٤، فأشار بالموت أو القتل إلى محمد ﷺ وقال فى مقام حفظه فينا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ الحجر ٩.

جمل الله الرسل من جماله وقد ظفرنا والحمد لله بنسبتنا إليه مباشرة، فنحن أُمته وهو رسول الله إلينا، وبه شرفنا وفضلنا، وإن قصرت أعمارنا وقلت أعمالنا، وقد أظهر الله سر قوله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة ٣٠، فينا نحن أمته ﷺ حيث وفقنا لطاعته، وأشهدنا خفى مشاهد التوحيد، فنحن نصلى ونستغفر كما أمرنا ﷺ، والملائكة أثبتوا لأنفسهم التسبيح والتقديس: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة ٣٠، ونحن نخشى من نسبة القربات إلينا فنستغفر الله منها إقراراً بأنه الفاعل المختار، وأنه تفضل علينا فوفقنا لما

يحبه، فله المنة والشكر فى أن أقامنا مقام محابه ومراضيه، ونسب إلينا ما خلقه لنا فنخشى أن نغفل عن هذا المشهد فنستغفر الله تعالى رجوعاً إليه، وطلباً منه أن يستر علينا نقائصنا وجهلنا، ولم يكن ذلك للملائكة، وهذا المقام من المقامات التى لا ينزل الله فيها إلا خاصة أحبابه، من المقربين فوق أهل اليمين، لم يكن ذلك بجهودنا ولا بكدنا، ولكن ذلك فضل الله علينا بحبيبه وسيدنا محمد ﷺ.

تلك النعم يا أخى لا تقتضى بطراً وكفراً، ولكنها تقتضى عجزاً وشكراً، فاستحضر نشأتك الأولى، وانظر إلى ما تفضل به الله عليك بانتسابك إلى هذا السيد العظيم ﷺ، وقف موقف الحيرة، عجزاً عن حصر الآلاء، والدهشة قصوراً عن عد النعماء، ثم انظر إلى هذا السيد بالعين التى تليق بما خولك الله لتعلم مقدار فضل الله عليك، ولتذكر نعمة الله، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ آل عمران ١٠٣، يعنى محمداً ﷺ.

والشكر يا أخى فى هذا المقام كمال اتباعه ﷺ، لا تعجب يا أخى فاتباعه ﷺ واجب لكمالاته، ولأنه شكر للمنعم ولكن الله تفضل علينا باتباعنا له، فجعلنا محبوبين له، إن التاجر الكيس يترك النوم والراحة لربح قليل يزول بموته، وربما كان لا ينفعه، فكيف بك أيها العاقل، وأنت باتباعك له تمنح مسرات حسك ونعيم جسمك وبغية عقلك، وطلبة روحك فى الدارين، وتظفر بمحبة الله تعالى التى ترخص فى سبيلها الجنة ونعيمها؟!

أعجب يا أخى كل العجب من رجل يعمل الخير لنفسه، ليظفر بالحسنيين بتوفيق الله ومعونته، ثم ينسب الله إليه ما أعانه على فعله كأنه أوجده وأبدعه، ثم يمن عليه بمحبته جل جلاله، كل ذلك بسبب اتباعه له ﷺ، فما أخف ما أمرنا به وأسهله، وما أعظم وأجمل وأكمل ما تفضل به علينا، فشقى والله عبد عبد هواه، ولم يتبع رسول الله. أسأل الله سبحانه أن يوفقنا لكمال اتباعه وأن يمنحنا الإخلاص، وأن يفنينا عن شهود الإخلاص فى أعمالنا حتى لا يكون بيننا وبينه بين، يحجبنا عن شهود جماله الظاهر وإحسانه الوافر، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم.

❊ ❊ ❊

شفاعة المؤمنين يوم القيامة

خلق الله العالم وهو غنى عن العالمين، وتفضل جل جلاله وهو ذو الفضل العظيم، فرحم الخلق بالخلق فى الدنيا ونفع الخلق بالخلق، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧، فتفضل على من شاء من عباده بفضله وأقامه فى الدنيا سبباً لنيل العباد فضل الله تعالى ورحمته وإحسانه، وإنا لنرى الإيمان والهداية والعلم يتفضل الله بها علينا على أيدى رسله وأحبابه من أوليائه الكرام.

فكما أن الله جل جلاله أجرى إحسانه فى الدنيا على يد من شاء من خلقه، فهو جل جلاله يقيم من شاء من رسله عليهم السلام ومن أوليائه المقربين مقاماً يجعلهم سبباً لنيل أهل المعاصى المغفرة من الله تعالى، والنجاة من النار بشفاعتهم.

وليس ذلك مما يؤدى إلى ما لا يليق بالله تعالى من النقص؛ لأنه سبحانه وتعالى هو المتفضل فى الدنيا والآخرة، ولأن ذلك برهان على كمال فضله وعنايته بأحبابه.

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه الإمام البخارى: أن الله تعالى يحب العبد المؤمن حتى يبلغ بحبه له مبلغاً يستجيب له فيه إذا سأل، ويعطيه إذا طلب، ودليل ذلك فى القرآن المجيد، قال سبحانه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ الزمر ٣٤، بعد أن قال سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ق ٣٥، أى فى الجنة، فمنحهم المشيئة فى الجنة فيما يختص بمسراتهم ونعيمهم، ومنحهم سبحانه المشيئة عنده فيما يتعلق بمن كانوا يحبونهم فى الدنيا ويعطفون عليهم ويرحمونهم، ولا معنى لقوله سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ إلا ما قررته لك من قبول شفاعتهم وإكرامهم بأن يشهدهم الخير فيمن والاهم فى الدنيا، واقتدى بهم وعمل بأعمالهم.

وعبد يحبه الله ويكرمه بأن يجعله دالاً عليه، ناصراً لدينه مرشداً لعباده ويكرمه على أيدى من اتبعوه بالنصرة والتأييد له، وبذل ما فى الوسع مما يملكون، يتفضل سبحانه فيكرم به أتباعه يوم القيامة، كما أكرمهم به فى الدنيا وإكرامه بهم فيها، قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ فاطر ٤٢، فرفعة الذين كمل إيمانهم والذين تفضل عليهم

بالعلم إلى تلك الدرجات، يذاق منه التفضل عليهم بقبول شفاعتهم فى أحبابهم، بعد شفاعة رسول الله العظمى فيمن تلوثوا بالخطايا من السيئات، وإذا تفضل ذو الفضل العظيم بفضله على من شاء من الذى يمنع؟! قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ التحريم ٨.

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ التحريم ٨، بشرنا الله تعالى بأنه سبحانه لا يخزى المؤمنين بعد أن جعل لهم نوراً بين أيديهم وعن أيمانهم، وهذه البشرى تدل بصراحة على أنه سبحانه وتعالى يستجيب لهم، ويتفضل عليهم بما يريدونه منه سبحانه، فلا يخزيهم جل جلاله إذا تشفعوا عنده فى أحبابهم، لأن معنى الخزى: حرمان الطالب من نيل طلبه، وهؤلاء لا طلب لهم يخص أنفسهم، لأن الله تعالى ألبسهم حلة القبول والنور عند خروجهم من القبور، وحملهم على رفارف الرحمة والعناية، فلم يبق من داع لأن يخبرنا سبحانه أنه لا يخزيهم، اللهم إلا ما يتعلق بشفاعتهم لأحبابهم الذين كانوا يصحبونهم فى الدنيا ولكنهم قصروا، بدليل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ التحريم ٨، أى اجعلنا كلنا نوراً حتى تتفضل علينا بمواجهتك ونيل ما نحبه لإخواننا منك سبحانك.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الحديد ١٢، فرجال أحبهم الله ومنحهم النور عن أيمانهم وبشرهم بالإقامة فى المسرات الدائمة والنعيم الأبدى، وهم الذين جملهم الله بالرحمة فى الدنيا، فكيف تتم لهم المسرات وأهل محبتهم فى الله فى العذاب. هؤلاء لا يرون هذا النعيم إلا إذا رأوا من كان معهم فى الدنيا فى طاعة الله تعالى معهم من النعيم يوم القيامة، ومن هذا نعتقد أن الله تعالى يكرمهم بقبول شفاعتهم فيمن أحبوهم فيه سبحانه.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ مريم ٨٧، فنفى الشفاعة عن المجرمين، وأثبتها لمن اتخذ عهداً عنده سبحانه.

فمُنكر الشفاعة بعد إثباتها بالآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية يُحْرم الشفاعة

يوم القيامة، وحسن الظن بالله من أوثق عرى الإيمان.

فأنا والحمد لله أعتقد أن لرسول الله ﷺ الشفاعة العظمى، وأن لكل مؤمن شفاعة فى أخيه المسلم، وأطمع إن شاء الله أن أنال الخير برسول الله ﷺ، ثم بشفاعة أخوتى المؤمنين، بل وأرجو بحسن ظنى فى الله ما هو فوق ذلك مُطمئناً قلبى، وإن كثرت ذنوبى وعظمت خطاياى، فإن الله تعالى لا تضره المعاصى ولا تنفعه الطاعات، وهو ذو الفضل العظيم.

رشفة من طهور الأرواح

إن الله ذو الفضل العظيم، فهو سبحانه وتعالى يكرم من شاء من رسله ومن أبدالهم الصديقين وورثتهم المجددين لسنتهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ فنعيم الجنة إكرام من الله لأهل الإيمان، ونعيم الرضوان إكرام منه سبحانه لأهل الإحسان، ونعيم المشاهدة إكرام منه جل جلاله لأهل الإيقان. وهناك فضل فوق ذلك هو أن يؤنس من أحبهم وقربهم على بساط مؤانسته وقربه بما شاء من فضله العظيم، عندما يتجلى بما هو أهله من الإحسان والجمال والنور والبهاء والكمال، بعد أن تجلى بما هو أهله من الجلال والقهر والانتقام والقوة والبطش والكبرياء، فيأنسون على هذا البساط بما يتنزل به لهم، ويشهدون ما يحبه من العفو والمغفرة والإحسان والإكرام، لأنه العفو الغفور التواب المحسن الحنان المنان، فيسألونه جل جلاله أن يتجلى بمعانى صفات أسماء جماله، وسؤال الله تعالى مخ العبادة، ويشفعون فيشفعون، ويسألون فيجابون، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الزمر ٣٤، إشارة إلى المقربين من حضرته، ومتى شاء أن يشفعهم فيمن عرفوهم فى الدنيا قَبِل شفاعتهم، وأخرج من شاءوا إخراجه من النار بفضله وإحسانه وكرمه، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ق ٣٥، إشارة إلى أهل الجنة.

والشفاعة ليست من الأمور المستحيلة بل هى جائزة، إذ ليس من أهانه الله تعالى أن يقف عبد محبوب له فيسأله ما هو من صفته من الرحمة والعفو والإحسان والكرم، وقد أخبرنا جل جلاله أنه يحب المحسنين ومع المحسنين، فإذا كان يحب ذلك منا فى الدنيا فكيف يكرهه يوم القيامة! وتلك الأمور الغيبية التى لا تقدر العقول أن تدرك معانيها، يجب علينا أنا إذا

حُرمنا الذوق أن لا نُحرم التسليم، لما ورد عن رسول الله ﷺ فى مثل هذه المسائل، ومن حرم التسليم والذوق حرم الخير كله.

وإن الذى حدا بمن أنكروا الشفاعة إلى ذلك، هو خوفهم على العامة أن يتجاوزوا حدود الله تعالى ارتكاناً على الشفاعة، أو خافوا مما يلزم على الشفاعة من أن هذا أمر لم يكن معلوماً لله تعالى. والحقيقة أن الله قدر الأقدار أزلاً، وقدر أن تكون الشفاعة، فهو المريد المقدر كل شئ، ولا فاعل سواه.

ولأهل مشاهد التوحيد ذوق فى الشفاعة وغيرها، فإن الله له فضل عظيم لا يُحصى ولا يُعد، منه أن ينسب الأعمال الصالحات التى أعان العبد على عملها ووفقه لها وهداه إليها إلى العبد إيجاداً وعملاً فضلاً منه، ثم يتفضل عليه بفضل أعظم من ذلك، وهو أن يمنحه الملك الكبير جزاء على هذا العمل، والفضل فضله سبحانه أولاً وآخراً، والعبد لم يكن شيئاً مذكوراً، فهو سبحانه الذى أوجده من العدم وخلقه بيديه، وهداه النجدين، وأعان كل مخلوق على ما قدره له أزلاً، فلا حرج على فضل الله تعالى أن يعظم أحبابه يوم القيامة فيجعلهم شفعاء لديه، ويرفع مكانتهم بين خلقه فيقبل شفاعتهم.

ومن نظر إلى تلك الحقائق بعيون عقله المكتسب رُد خاسئاً وحسيراً، ومن نظر إليها بعيون العقل الذى يعقل عن الله، وبالنور الذى جعله له الله سبحانه، اطمأن قلبه وقَبِلَ وأقبل، وفرح بفضل الله وبرحمته ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ الكهف ١٧.

إلى المرجى ليوم الهول فى الحشر

إلى المرجى ليوم الهول فى الحشر ... حبيب ربى رفيع الذكر والقدر
وسيلة الرسل والمحبوب من أزلٍ ... وفرد ذاتٍ تعالت محكم الذكر
شفيعنا يوم موقفنا وحجتنا ... يوم اللقاء لدفع الهول والشر
غياثنا فى مقام الاضطرار وفى ... مقام أخذ النواصى شدة الأمر
إليك يا رحمة الرحمن جاء بنا ... يقين حقٍ بنيل الفضل والخير
وأنت يا سيدى المقبول رحمته ... وحبه صح فى التنزيل من بر
وقد ظلمنا وخالفنا وأنت بنا ... بمحكم الآى أولى فاشرحن صدرى
تشفعن سيدى فلك المقام به ... أنال كل قصودى ليلة القدر
وفى الضحى آية التنزيل تنبئنا ... ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ﴾ بالإحسان والبر
فنظرةً لجميع المسلمين بها ... عناية الله تتوالى بلا عسر
وعطف رؤوف رحيم نص آيته ... يصح منه جمال الجسم والسر
فأنت أولى بنا منا فعاطفةً ... بها يلوح الضيا فى البحر والبر
وسيلتى أنت يا محبوب خالقه ... فكن لنا سيدى فى الوصل والسير
مرادنا القرب نحيا فى جوارك يا ... حبيب ربى فى أنس وفى خير
ذنوبنا سيدى عظمت وأنت لها ... فسل إلهك محو الظلم والوزر
وسله قربة إقبالٍ نكون بها ... مشاهدين جمال المنعم البر
مواجهين بوجه الله فى نعم ... على صراطك فى وردٍ وفى صدر
مؤانسين على بسط الولاية فى ... رياض قربٍ بنور الشمس والبدر
مؤيدين بروح الاتحاد به ... مقربين بلا عتب ولا عذر
إليك يا سيد الرسل الكرام سرت ... فآنس الروح فى ليلى إلى الفجر
ليشرق النور من فجر الحقائق لى ... يبين الغيب لى فى السر والجهر
ولى وحقك قصد لا أبيح به ... عن العبارة عالٍ فى خفا صدرى
فمن فضلاً به للعبد عاطفةً ... لأشهد الوجه يمحو ظلمة الغير
كبرت سناً وضعفى لا أطيق به ... لواعج الشوق أرجو الوصل بالنصر
وأنت رحمة ربى من لى كرماً ... بطيبةٍ فى صفاء العيش واليسر

رؤية الله تعالى ودلائلها

الرؤية وظيفة البصر، والغاية منها الكشف والعلم، والبصر إنما يبين الألوان والأبعاد وما عليه الحقيقة المرئية من الشكل، فالبصر لا يكشف الحقيقة من حيث ما هى عليه، فقد يرى الناظر جسماً أمامه فينكشف له لونه وشكله وبعده، ولكنه يجهل حقيقته، فإذا انكشفت حقيقته على ما هى عليه، فانكشافها يكون بغير البصر، ويكون الإنسان بهذا الانكشاف أدرك الحقيقة، فالرؤية شئ والإدراك شئ آخر، لأن الرؤية علم ما يمكن أن يراه الناظر من الحقيقة. وإنا لنرى كل الحقائق ونعجز عن إدراكها، فنرى الشمس قدر الرغيف، ونرى الشئ ونجهل طعمه وملمسه وريحه وخواصه وقدره، ولا يمكننا أن نحصل شيئاً من ذلك إلا بقوة أخرى غير البصر.

ولما كانت الرؤية هى الكشف أو العلم فقد تكون بالبصر للماديات، وبما يجعله الله تعالى للعبد من النور الذى ينال به تلك الرؤية مما فوق المادة، وكلنا نعلم أن الله تعالى تنزه عن المِثل – بكسر الميم وسكون الثاء – وأن الله تعالى له المَثَلُ الأعلى – بفتح الميم والثاء – كما أن الخيال يمثل المحسوسات، والوهم يمثل الحقائق العقلية فى كل إنسان مهما كان، فالله تعالى يجعل للمؤمنين نوراً يكرمهم به ليتفضل عليهم برؤيته سبحانه بمقدار ما تطمئن به قلوبهم، كل على قدره. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات ١٦٤، ولما كانت الأبصار تقتضى وجود الحقيقة مقابلة لها مفصولة عنها، وأشعة من النور تنكسر على تلك الحقيقة فى أفق خال من الحجاب حتى يحصل المراد من الرؤية وهو الكشف والعلم، وكان الوهم والخيال يحتاجان إلى استخدام البصر ليقوما بوظيفتهما، كانت رؤية الله تعالى بتلك الكيفية مستحيلة، ومنكرها ممن وقفوا عند هذا الحد لهم العُذر، فإن إثباتها لا يقبله العقل المكتسب بتلك الكيفية.

فإذا نظرنا بعيون الإيمان إلى أن القادر الذى جعل عيوناً ترى تلك الحقائق بالوسائط التى وضعها سبحانه وتعالى، قادر أن يهب لأهل محبته نوراً يرون به ربهم، تنزه وتعالى عن المثل والنظير والشبيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ الأنعام ١٠٣،

أى لا تحيط بكنهه الأبصار مطلقاً، لا أبصار الرءوس ولا أبصار العقول ولا أبصار الأرواح ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ الأنعام ١٠٣، كلها لأنه سبحانه هو الذى خلقها بعلم وقدرة وحكمة وإرادة. قال سبحانه:﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ الملك ١٤، أى كيف لا يعلم الرب جل ثناؤه من أنشأه من العدم، وكيف يخفى عليه من خلق، وهو اللطيف بعباده الخبير بهم وبأعمالهم وما تكنه صدورهم.

دليل رؤية الله تعالى من الكتاب

وأثبت سبحانه الرؤية بقوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ القيامة ٢٢-٢٣، فأثبت جل جلاله أنه يهب جمالاً ونوراً لأهل محبته، حتى تكون وجوههم ناضرة بما يتفضل عليهم به من مزيد الإحسان، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ يونس ٢٦، فالحسنى النعيم المقيم للجسم والمسرات الدائمة للحس. والزيادة رؤية الوجه العلى الكريم بما جعله الله تعالى للعبد من النضرة.

ومن ذاق طهور قوله ﷺ فى الحديث القدسى: (كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به)، يعتقد أن المؤمن يرى ربه فى الدنيا يقظة ومناماً، ويراه يوم القيامة عياناً، وكل على قدره، وإنما هى طمأنينة القلب التى تحصل للمؤمن كما تحصل لمن رأى حقيقة ما بعينى رأسه، وما على العبد المؤمن الذى منحه الله التسليم والذوق والفقه إلا أن يقول كما قال الراسخون فى العلم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران ٧، خصوصاً بعد أن أشهده خواص تلك الكائنات التى اخترعتها العقول واستخدمتها للنفع العام، مما أودعه سبحانه فى العقاقير الطبية وفى المعادن وغيرها، ومما رأته الأبصار من البأس الشديد فى الحديد والنفع للناس، مما كان يجهله الإنسان. وقد انكشفت للعقول آيات كثيرة كانت خفية فى طى تلك الكائنات أخبرنا عنها العلى المجيد فى آيات لا تحصى.

ومن أشهده الله تعالى حكمة رفع السماء بغير عمد، وحكمة تسيير الأفلاك وتصريف الرياح وتسخير السحاب، وما فى الأرض وفى الأجواء والسماوات من الآيات والخواص. كل تلك الآيات المنكشفة لأهل الإيمان، تجعلهم يعتقدون تمام الاعتقاد أن الله تعالى يكشف

عنا حجاب البين، ويجعلنا بنضرة وجوهنا ووضاءتها وبهائها بما يتفضل به علينا من كمال معرفتنا بأنفسنا، التى جعلها سبباً لمعرفته سبحانه وتعالى، فإن العبد المؤمن يعلم من الله تعالى بقدر ما علم من نفسه ومن خلقه، وبقدر ما يعلم من الله تكون وضاءته وجماله ونضرته، فيرى ربه عياناً بعد رؤيته سبحانه بياناً.

وقد علمت أن الإيمان هو التصديق، وأن فوق الإيمان علم بالمؤمن به، وفوق العلم ذوق، وفوق الذوق رؤية، وفوق الرؤية شهود، وفوق الشهود فناء عن الشهود، إعظاماً وإجلالاً للجناب العلى، وتفريداً لحضرته العلية بالقصد دون غيره، وفوق ذلك مقام الرضا عن الله، ويلى الرضا التوكل عليه سبحانه، ويلى التوكل تفويض كل الأمور إليه جل جلاله، فمن كان مقامه الإيمان وأنكر خبراً من أخبار رسول الله ﷺ نفى الإيمان عن نفسه؛ فإن الصادق لا يتهم بالكذب فى أخباره، وقد يلعب إبليس بعقول بعض المؤمنين فينكر تأويلاً، ومتى وجد إبليس منفذاً يدخل منه فى قلب المؤمن أفسد عليه القلب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ آل عمران ٧-٨، ثم أخبر عن الراسخين فى العلم أنهم: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ آل عمران ٧-٨.

وهذا ما أدب الله به الراسخين فى العلم. والسلامة كلها فى اتباع السلف فى هذه المواضيع التى هى محل الاختبار والامتحان، وكيف لا والله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ الشورى ١١، فنفى المثلية عنه سبحانه فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فمن شبه الخالق بالمخلوق وحكم على الخالق العظيم بما يحكم به على المخلوقين أخطأ وأساء الأدب.

وقد ثبت جواز الرؤية بطلب كليم الله عليه السلام بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ الأعراف ١٤٣، ورسل الله معصومون من خطأ طلب المستحيل، ورد الله تعالى عليه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ الأعراف ١٤٣، لأن الله سبحانه لم يمنحه القوة على تحمل الرؤية كما منحه القوة على تحمل الكلام، بدليل أنه لم يقو على رؤية تجلى ربنا جل جلاله للجبل بقدر الجبل، فدُك الجبل وصُعق الكليم عليه السلام عليه السلام.

ولكن الله وهب لحبيبه ومُصطفاه ﷺ القوة على تحمل الرؤية، فرأى ربه عند ربه، مطمئن القلب ثابت العقل والجسم والحس.

وقد أخبرنا الله تعالى بأن رؤية الملائكة لا تطيقها القوى البشرية إلا بقدرة من الله تعالى يتفضل بها على أنبيائه ورسله، بها يتيسر لهم رؤية الملائكة، والسماع منهم، ومن لم يهب الله له تلك القوة لا يطيق رؤية الملائكة قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ الفرقان ٣١، بل لا يطيق رؤية الجن، لا بل قد يفزع ويهلع ويجزع إذا رأى حيواناً مفترساً قريباً منه، فيغمى عليه من الهلع، مع أننا نرى أن بعض الرجال يهاجمون السباع فى غاباتها، وبعض الأولياء يسخر الله لهم تلك الوحوش، وكل ذلك بما يتفضل به من القوة على العبد.

والأولى أن يحفظ كل مسلم رتبته التى أقامه الله فيها.

فأهل الإيمان يلزمون التصديق بما جاء به رسول الله من أخبار البعث والحشر والميزان والصراط والجنة والنار والرؤية وغيرها.

وأهل الإحسان يلزمون مرتبتهم من رعاية آداب الله، وآداب رسول الله ﷺ وآداب الاتباع.

وأهل الإيقان يلزمون مرتبتهم من المراقبة لجلال الله تعالى، ورعاية وعظمة وكبرياء وتنزيه الحق جل جلاله، والقيام بحقوق العبودية على صراط الله المستقيم محافظة على اتباع سيد المرسلين ﷺ؛ لأنهم من أهل محبة الله تعالى.

ومن سوء الأدب أن يتعدى أهل مقام الإيمان حدود الأدب، فيطمعون فيما تفضل الله به على أهل الإحسان، فإذا لم ينالوا أنكروا وأولوا. الجنين فى بطن أمه لا يمكنه أن يتصور الدنيا حتى يراها، وكذلك الطفل لا يمكننا أن نجعله يتصور لذة الوقاع لأنه ليست له تلك القوة التى يدرك بها، وكم أهلك التأويل رجالاً رمى بهم إلى هاوية البعد والقطيعة. منحناً الله تعالى التسليم فى مقام الإيمان، والذوق فى مقام الإحسان، والرؤية فى مقام اليقين، حتى

تطمئن قلوبنا فى كل مرتبة، فنكون من الذين أثنى الله عليهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الزمر ٢٣، وقال سبحانه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الزمر ١٧-١٨.

دلائل رؤية الله تعالى من الأحاديث

عن جرير بن عبد الله ﷺ قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: (إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تضارون فى رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾ ق ٣٩.) أخرجه الخمسة إلا النسائى.

وعن صهيب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، ألم تنجنا من النار، قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى، ثم تلى هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ يونس٢٦)، أخرجه مسلم والترمذى.

وعن أبى ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك تعالى؟ قال: (نور أنىَّ أراه) .أخرجه مسلم والترمذى.

بشائر المتحابين فى الله يوم القيامة

قال رسول الله ﷺ: (المتحابون فى الله عز وجل على عمود من ياقوتة حمراء، فى رأس العمود سبعون الف غرفة، مشرفون على أهل الجنة، يضئ حسنهم لأهل الجنة كما تضئ الشمس لأهل الدنيا، عليهم ثياب سندس خضر، مكتوب على جباههم: هؤلاء المتحابون فى الله عز وجل)، وروينا فى حديث سيدنا معاذ ﷺ، وقد قال له أبو إدريس الخولانى: إنى لأحبك فى الله عز وجل، فقال له: أبشر ثم أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ينصب لطائفة من الناس كراسى حول العرش يوم القيامة، وجوههم كالقمر ليلة البدر،

يفزع الناس وهم لا يفزعون، ويخاف الناس ولا يخافون، وهم أولياء الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقيل: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم المتحابون فى الله عز وجل). عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء، قيل من هم يا رسول الله؟ فلعلنا نحبهم، قال هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أسباب، وجوههم من نور، على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس ٦٢.

وعن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قال: يا رسول الله أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم؟ فإنا نحبهم لذلك، قال هم قوم تحابوا فى الله بروح الله، على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس) وقرأ هذه الآية ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يونس ٦٢.

عن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تصل بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله وتصافوا فى الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، يفزع الناس فلا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفى الخبر: (ما زار رجل أخاً فى الله عز وجل شوقاً إليه ورغبة فى لقائه إلا ناداه ملك من خلفه طبت وطابت لك الجنة) وورد فى الأثر عن رسول الله ﷺ: (أن رجلاً زار أخاً فى الله تعالى فى قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته مَلكاً، فقال: أين تريد؟ قال: أردت أخاً لى فى هذه القرية. قال: هل بينك وبينه رحم تصلها؟ أو له عليك نعمة تربها؟ قال: لا، إلا أنى أحببته فى الله عز وجل، قال: فإنى رسول الله إليك، إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما أحببت فيه).

والحمد لله رب العالمين الذى تفضل علينا بالبيان، وأسأله سبحانه وتعالى أن يقيمنا مقام العمال المخلصين لذاته حتى ينفعنا بما علمنا، وأن يهب لنا الفقه فى دينه، وأن يجدد بنا مناهج

رسول الله ﷺ حتى يصير الدين كله لله، وأسأله سبحانه أن يوفقنا لمحابه ومراضيه، وأن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، إنه مجيب الدعاء وصلى الله على سيدنا ومحمد وآله وصحبه أجمعين.

الحب فى الله تعالى

الحب فى الله نور الروح والقلب ... والحب فى الله معراج إلى القرب
الحب فى الله سر قد ينال لمن ... قد خص بالفضل إحساناً من الرب
الحب فى الله فضل الله يمنحه ... للمخلصين بلا كشف ولا حجب
قوم إمامهمو المختار ناولهم ... بالفضل راح الصفا فى حالة الشرب
قد شاهدوا وجهه فى حال ذكرهمو ... قد لاح جهراً لهم فى حظوة الحب
قوم لقد جذبوا لله فاتصلوا ... بالمصطفى للذى فى المنزل الرحب
لم تلههم جنة الفردوس إذ شهدوا ... نوراً تجلى لهم من عالم الغيب
فروا إلى الله فى شوق لحضرته ... غابوا به عن حدود الشرق والغرب
محبوبهم خير رسل الله أم بنا ... حتى وصلنا إلى فضل بلا كسب
بشرى لنا حبنا فى الله قربنا ... للمصطفى فى مقام الحب والقرب
بشرى لنا قد سقانا المصطفى كرماً ... خمراً طهوراً بلا مزج ولا شوب

الفصل الثانى

من أسرار القرآن فى جمالات الاخرة

١ جمالات الحياة فى الجنة

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ البقرة ٢٥، لما كانت البشرى من الله تعالى تقتضى أن المُبشر به مناسب للمعطى الوهاب سبحانه، والله يعلم أن القلوب تحب الطمأنينة فبهذه البشرى افتتح الكلام بقوله: ﴿أَنَّ﴾ التى تؤكد الخبر وتجعله يقيناً كما قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ البقرة ٢٦٠، بعد أن بشره الله تعالى بأنه خليله، فتصديق البشرى شئ وطمأنينة القلب شئ آخر، فأتى الله بـ أن التوكيدية ليقوى اليقين فى القلوب بهذه البشرى، ويكون السامع واثقاً تمام الثقة بأن الله تعالى أعد له ما بشر به، وهو سبحانه الصادق فى العلم بما يسر عباده.

و﴿جَنَّٰتٍ﴾ جمع جنة، إشارة إلى أن لكل مؤمن جنة خاصة ربما كانت أوسع من الأرض جميعاً، كما قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣، وتلك الجنة آهلة بما بينه سبحانه فى القرآن المجيد بمقصورات وخيام، وأنهار من ماء ولبن وخمر وعسل، ومن حور وولدان، وزوجات مطهرات ونعيم مقيم. والجنة هى بستان التفت أشجارها حتى سترت من بداخلها عن خارجها، وكملت كمالاً ابتهج به الرائى وتمتع به المحتاج، قال تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى من تحت أشجارها ونباتها.

﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ يعنى كلما تفضل الله عليهم من تلك الجنة برزق وهذا الرزق من ثمارها، تذكروا ما كان يتفضل الله به من الثمار، فحصل لهم الأنس والبهجة برؤية ما كانوا يعهدونه فى الدنيا، فلما ذاقوه وشموه ولمسوه ظهر لهم ما أعده الله فيه من الرائحة الطيبة والطعم الشهى، فتحققوا أنه غير ما كان فى الدنيا، فازدادوا مسرة وحبوراً وشكراً لله، وليس المراد أن الثمار هى التى قدمت لهم فى الدنيا، ولكن الكلام على

حذف مضاف، يعنى هذا النوع الذى رزقنا به من قبل، أو شبهه، أو على حذف حرف الجر، أى هذا من الذى رزقنا به من قبل.

ولنا أن نؤول هذه الآية بمعنى أن الذى يقدم لأهل الجنة من الثمار يقدم لهم مرة ثانية فيظنون من نوع واحد، وإذا به يختلف فى الطعم والشم واللمس، فيعجبون، لأن الشكل واللون لا يختلفان عما قدم لهم أولاً، ويأخذ العجب منهم كل مأخذ، فتتجلى لهم عجائب قدرة الله وأسرار تصريفها فى الحقائق، ويقول لهم الملك: إن الشكل واللون واحد ولكنهما يتفاوتان فى الطعم والريح من لذة وطيب، ويكون هذا مزيد شهود لهم فى معانى قدرة الله وحكمته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق ٣٥، فما من شئ فى الجنة إلا وهو يتغير من حسن إلى أحسن، ومن جمال إلى أجمل، وسبحان من أكرم أحبابه، بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. ولك أن تقول ﴿هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أى بشرنا به، بمعنى وعدنا بالبناء للمجهول، أى أن الله تعالى وعدنا بهذا رزقاً لنا، فنحن رُزِقناهُ فى الدنيا بخبر رسول الله، وهذا أقرب إلى الفهم وإن لم يقل به أحد من السابقين، كما يقول أهل الجنة: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ الأعراف ٤٤.

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ خلق الله الإنسان مفطوراً على الأنس، وخصوصاً مما لا بد له منه، ولما كان أشهر ما يأنس به الإنسان وينال به بهجته ومسرته الزوجة الصالحة الجميلة، بشرنا الله تعالى بأن لنا أزواجاً فى الجنة، وهنا يلحظ القارئ أن أزواج الجنة مطهرة مما يعترى أزواج الدنيا من الحيض والمرض والبول والغائط، مما ينغص الحياة ولا ينال الطهر فى تلك الدار الدنيا، لأنها دار البلاء وشر البلاء فى هذه الدار الدنيا سببه النساء لفقد الأخلاق الجميلة منهن قبل دخولهن الجنة التى بها يكمل جمال الزوج، قال رسول الله ﷺ: (النساء عوج لا يعدلهن إلا الطلاق).

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ كمال البشرى أن هذه الكلمة تطمئن بها قلوب أهل الجنة، وأى إنسان فى أكمل النعيم وأتم الصفاء يخطر على قلبه الموت ويأنس ولو كان ملكاً نافذ الكلمة مطلق التصرف، فإن ذكر الموت ينغص كل نعيم، وكفى بالدنيا تعسة أن فى

آخرها الموت، هنا يناسب أن نتمثل ما فى هذه الآية، فلما سمع المؤمنون قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تشوقوا إلى تلك البشرى من الله تعالى وتحققوا أنها كمال النعمة، فقال سبحانه: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ أى بساتين، وهم فى تلك الدار الدنيا فى عناء من تحمل الشدائد فى سقى البساتين، وخصوصاً فى زمن تحكم فيه من لا رحمة فى قلوبهم، فأزال الله من قلوبنا ما خطر بها بقوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ولكن تذكرنا أن تلك الأشجار تثمر ثمراً من محفوظ النوع والطعم والريح، وذلك يجعل مستعمله ربما يمل منه، فأغاثنا الله وأزال ما أخطر بقلوبنا فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وإذا به كالذى رزقوا من قبل لوناً وشكلاً لا رائحة وطعماً، فتمت المسرة والابتهاج، وتمت محبتهم فى المتفضل عليهم لمزيد إحسانه، فتتجدد لهم المسرة والحبور فى كل نفس بما لم يكن يخطر على بالهم، ولا سبق لهم أنهم تمتعوا به من قبل، وقال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ ق ٣٥، اطمأنت قلوب القوم بما أوتوه من هذا النعيم بوعد الله الصادق فى الدنيا.

ولكن رغبوا أن يكون لهم فى الجنة أنيس يشاكلهم مما كانوا يأنسون به فى الدنيا، فعلم الله ما فى نفوسهم فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ولفظ مُطهرة يشمل الكمال الذى لا يعتوره نقص من حيض ونفاس وبول وغائط ونوم وملل وفتور ومرض ينغص الحياة، فلما أن بشرنا الله بهذا الذى هو كمال أُنسنا، تبادر على الفكر مصيبة الموت فيها، فأزال الله عنا كرب هذا الخاطر، فقال سبحانه: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وهو معنى قوله: (تمام النعمة الجنة)، فكانت الحياة فى الجنة حياة الأُنس لا تشوبها وحشة، وفرحاً لا يشوبه حزن، ولذة لا يشوبها ألم، وخيراً لا يشوبه شر، وبقاء لا يشوبه موت ولا فناء، كما قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ الحجر ٤٦، وقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ الحجر ٤٧.

أيها المؤمن إن الله الذى صورك فى رحم أمك وأخرجك طفلاً، فوجدت ما لابد لك منه وأكمل من والدة تحنو عليك، وغذاء يناسب طفوليتك، وألقى عليك محبة منه، فأدخل بوجودك السرور على والديك وإخوانك، فلا ينظر إليك أحد إلا وعطف عليك وقبلك وضمك إلى صدره، ووجدت أرضاً تُقلك وسماء تُظلك وكواكب تضئ لك، وأنهاراً تجرى حولك ونباتات متنوعة لقوتك ولباسك، ووجدت نسيماً عليلاً لمسرتك فتتنفس فيه لحياتك، ووجدت

من الخيرات التى لا تحصى ولا تُعد، وكل ذلك وهو غنى عنك وأنت الفقير إليه سبحانه، فهل بلغ من جهلك بربك أن تنسى ما أنعم به عليك مما لو كلفت بأقل القليل منه لعجزت أنت والناس جميعاً.

هذا فعل القوى الغنى الكبير المتعال، فهل تذكرت أيها المؤمن فذكرت، أو استحضرت فحضرت، أم نسيت نعماه فلم ينسك، وخالفت أمره فلم يسرع بالعقوبة، وبارزته بالمعصية فغفر لك وعفا عنك، وهذا شأن الرب الكبير المتعال، فهلا فكرت فى الحال والمآل، فخجلت من إحسانه إليك وإساءتك إلى نفسك، فإنه سبحانه ما أغدقه عليك من النعم، بعد أن أوجدك من العدم وأعد لك سبحانه ملكاً كبيراً ونعيماً مقيماً، وبشرك، إلا لتشكره وتذكره فلا تنساه سبحانه ولا تعصيه، وأن تعبده وتوحده فلا تخالفه ولا تجحده.

أيها المؤمن إن ربك يحبك ويحب لك دار الكرامة، فسارع إلى العمل بأوامره وترك نواهيه، فإنك ضعيف لا تقوى على عقوبته، واسأله أن يقيمك حيث يحب ويرضى، ولا تسارع إلى ما يكرهه فتعصيه للطمع فى الدنيا أو للخوف من العبيد أمثالك، فإن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن ينفعوك بما لم يقدره الله لك ما فعلوا، لأنه هو الضار النافع، ولكنه وضع الأشياء لتدرك العقول بها العلم بالله الذى وضعها، أعاذنا الله وإياك يا أخى من أن تحجبنا الأسباب عنه سبحانه، أو أن يدعونا الحظ والهوى أن نطمع فيما يفنى ونترك ما يبقى.

٢ المرء مع من أحب

أتى رجل من الصحابة رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إنى أحبك ولا أعمل كعملك، فقال ﷺ: (المرء مع من أحب)، فقال: إنى أحبك يا رسول الله، فقال: (المرء مع من أحب)، فأعادها فقال ﷺ: (المرء مع من أحب. أنت مع من أحببت ولك ما احتسبت) قال العارف: إن المحب لمن يحب مطيع. والمحبة تقتضى السمع والطاعة، ومن أحب رسول الله ﷺ سمع منه وأطاع فكان معه فى الدنيا والآخرة.

* * *

٣ الرزق الجامع للخيرات

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ البقرة ٢١٢، يتفضل الله على أهل التقوى بما أعده لهم سبحانه يوم القيامة من الرزق الجامع لكل خيرات الروح والعقل والجسم والحس، فللروح الأنس بالله تعالى والكلام المقدس، وللجسم النعيم المقيم الذى يلذ له من مأكل ومشرب وملبس ورياش وفراش وملامسة ومأوى، وللعقل الفرح بما يراه من الحقائق التى كان صدق بها بالحجة الشرعية حيث تنبلج أنوار معانى الصفات، وللحس البهجة بالمناظر العلية والسماع الروحانى والشميم العنبرى والمذاق الشهى والملبس اللين، وهذا الرزق الذى يتفضل الله به على خلقه يطمئن قلوبهم به لأنه من غير حساب، إذ أن خيرات خزائن الله تعالى لا تنتهى، وبذلك لايكون على تلك العطايا حساب، لأن الحساب إنما يكون عند من يخاف النفاذ كما يحاسب أهل الأموال المحصورة خوفاً على نفادها.

ولك أن تقول : إن الله تعالى جمل أهل التقوى بأخلاقه التى هى معانى صفاته، فتفضل عليهم بتلك الأرزاق العظيمة لمقتضى تلك المعانى الربانية التى تجملوا بها من علم وحلم وصبر وشكر وتوبة وكرم وعفو، وغير ذلك من معانى صفات الأسماء الحسنى جميعها، فإن المؤمن التقى صورة الرحمن، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ البقرة ٢١٢، لأن المؤمن التقى متمكن فى مشاهد التوحيد العالية، وبرهان هذا التأويل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ الأحقاف ١٦، وأحسن ما عملوا التحقق بمشاهد التوحيد العالية التى يكون فيها التقى موقناً بلا حول ولا قوة إلا بالله، وجائز أن يكون المعنى: يرزق الله من يشاء فى الدنيا قبل الآخرة العوارف والعواطف والتنزلات وشهود الغيب المصون.

٤ حسن المآب

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ آل عمران ١٤، المآب هو المرجع، مأخوذ من آب يئوب، أى رجع يرجع، و﴿حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ يعنى خيره وهو يوم القيامة الذى تكون فيه مشتهيات الأرواح العالية من شهود جمال الله العلى، وسماع كلامه المقدس، والأُنس

بحضرته جل جلاله، ولذات العقول من شهود أنوار القدرة والحكمة فى حظائر الملكوت الأعلى، ولذات الجسم من مأكل شهى ومشرب لذيذ وملبس بهى، وملاذ الحس من منظر الجنة التى تعجز العبارة عن بيانها، فإن الإنسان الأول كان فى الجنة فكان يغذى حسه بمناظر الجنة من أزهار وأنهار وجمالات تسكر الأرواح، ويغذى جسمه بأنواع الملاذ من مأكل ومشرب من ثمار الجنة وطيرها ومائها وفاكهتها، وكان يغذى عقله بالنظر إلى بدائع إبداع البديع جل جلاله، وكان غذاء نفسه الطيب الحب والأنس بالله تعالى.

فلما أهبط إلى الأرض غذى حسه بالنظر إلى أهوال ما يراه من المناظر البشعة، وغذى جسمه بقديد الثمار وغيرها وبعد الجهد الجهيد والعناء الفادح، وغذى عقله بالبحث عما يدفع به عن نفسه شر العاديات من وحوش البر وعناء البحر وخوف حيوانات الأرض، وفقد غذاء الروح الطاهرة، وأشهد الله الإنسان الأول نعيم الجنة وأشهده عناء الأرض ليخبر أولاده فيشتاقون إلى الجنة ويعملون لها، وأخرجه من الجنة بذنب واحد ليذكر أبناءه أن الساكن فى الجنة أخرج منها بذنب، فيحذرهم من عمل الذنوب.

وهنا أشير إليك إشارة: تعلم أن أهل محبة الله فى الدنيا هم عند ربهم، وهم فوق التراب وتحت السماء، لأن محل نظر الله تعالى هو القلب، فإذا تعلقت همم العبد وعزائمه بربه، واستحضر حكمة إيجاده وسر إمداده تمثل هذا الجناب العلى بما يقدر عليه من التمثيل، بحسب ما وهب الله له من القوة المتصورة، فإذا كمل يقينه فى هذا المشهد كان وهو يمشى على الأرض عند ربه سبحانه، من حيث عناية الله به وإقباله عليه بعواطفه وعوارفه، ومن كان عند ربه فى الدنيا رفعه الله فى الآخرة، فجعله عنده فى مقام الأُنس به على بساط منادمته، ولما لم يكن هناك ألفاظ خاصة تدل على الله بلطفها ومعناها، خاطبنا سبحانه بما نعلم من الألفاظ بحسب مقدارنا العقلى، ومنحنا نوراً نستبين به روح تلك الألفاظ فنسلمها لله تسليماً، فنقول: العندية معلومة والكيف مجهول.

٥ الرضوان الأكبر جزاء المتقين

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ آل عمران ١٥.

﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أى من الخير لهم أو معه لهم يوم القيامة، وفى هذه الآية إشارة إلى أن الذين اتقوا قدر الله لهم التقوى والنعيم المقيم من الأزل، حتى لو أنهم عاشوا فى المعاصى، وقد سبق لهم هذا الخير العظيم لنالوه، فلا تأثير للأسباب، وإنما جعلت الأسباب ابتلاء من الله تعالى لحكمة علية لا يعلمها إلا الراسخون فى العلم، لتظهر معانى الصفات جلية، وأن الله قد يؤاخذ العبد على طاعته فيدخله النار إذا عامله بالعدل، وقد يقدر أرقى مقام لأهل الكفر به الذين عاشوا فى الكفر عشرات السنين، فيهديهم ويوفقهم قبل موتهم، ليظهر جل جلاله قهاراً مُنتقماً غفوراً رحيماً.

﴿جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾﴿جَنَّـٰتٞ﴾ بدل من خير، ولك أن تقول: جنات على النصب ويكون للمدح، وعلى الرفع فيكون للاختصاص، أى هى جنات، وكأن سائلاً سأل ما هو الخير الذى أعده الله للذين اتقوا؟ فقال: هو جنات، فظن أهل الدنيا أن الجنة فيها عناء السقيا والتعب فى تحصيل الماء فيطمئن الله قلوبهم بقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾ فلما أخبرنا الله تعالى بالجنة وبالماء الذى يجرى تحت أشجارها تذكرنا الموت وانزعاج القلوب من وقوعه أو تذكره فقال سبحانه: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أى مقيمين فيها لا يخافون موتاً ولا فوتاً.

فحصلت البهجة للنفس، ولكنا تذكرنا الوحشة فيها حيث لا أنيس يؤنسنا لأن الإنسان شديد الطمع حريص على حسن مستقبله، فقال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾ فحصل الأُنس والسكون إلى الله تعالى، ولكنهم على يقين من إطلاق حضرة الربوبية، فيخشون منه سبحانه أن يلتفت بوجهه الجميل عنهم، فتكون وحشة الروح وألمها، فآنس الروح بقوله: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الذى هو طُلبة الأرواح بدليل قوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ التوبة ٧٢، يعنى أكبر من الجنة وما فيها، لأن بهجة الأرواح فوق أشهى ملاذ الأشباح، وكم من مبتهج بروحه جائع عار متألم من الأسقام، وهو فى بهجة وأنس بالله تعالى لا يتأثر بشئ من ذلك، وكم من متمتع بكلمة ﴿كُن﴾ وقلبه يذوب خوفاً من حرمان الرضوان، فأُنس الأرواح خير وأبقى من جنة الأشباح.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ أى محيط علمه بما هم عليه قلباً وقالباً، فيهب لمن أقبل عليه محقراً الدنيا ومستصغراً الآخرة فى جناب رضوانه الأكبر بمجاهدة نفسه، حتى يتجمل بالذكر الأكبر مما لا عين رأت فى جنة الرضوان على بساط الأُنس وموائد الكرامة من الله التى تتغذى بها الأرواح غذاءها الخالص، وهى جنة من أحبهم الله واصطنعهم لنفسه، ويعلم أيضاً إنكار وجحود أهل النفاق والكفر بالله، فيحشرهم إلى دار العذاب الجسمانى والألم الروحانى فى نار مؤصدة على الأجسام، وتطلع على الأفئدة بعذاب الأرواح والضمائر.

٦ تجلى الله تعالى

إن الله سبحانه وتعالى خلق نفوس الأناسى من جواهر مختلفة، وأعلاها وأصفاها مخلوق من نور الجمال الإلهى، الذى خلق الله منه نَفْس محمد ﷺ وما خلق من هذا النور قبل عن الله ما أنزله على أنبيائه قبول تعقل، وفهم عن الله تعالى، وأما النفوس التى خلقت من أردأ الجواهر أو من سجين فإنها لا تقبل عن الله، ولا تمنح العقل الذى يعقل عنه سبحانه، ولو تجلى لها لأنكرته، كما ورد فى الحديث الشريف: (إن الله يتجلى لطائفة من أهل المحشر فيقول: أنا ربكم، فيقولون له اخسأ ما عرفناك ولا عبدناك، فيظهر لهم بالجنة فيقول: أنا ربكم، فيقولون له: عرفناك وعبدناك. وينصرفون إلى الجنة. ويتجلى لقوم آخرين بالمنعم فيقول لهم: أنا ربكم، فيقولن: اخسأ ما عرفناك ولا عبدناك، فيتجلى بجمال وجهه العلى فيقول: أنا ربكم، فيخرون سجداً، ويقولون: عرفناك وعبدناك، ويأبون أن يجيبوا داعى الجنة) فأنواع النفوس تختلف باختلاف جواهرها، فترى النفوس العالية تأبى أن تقبل الباطل أو تميل إليه، ومن علامتها أن قليل الحكمة يكفيها، قال ﷺ: (المؤمن يكفيه قليل الحكمة) والنفوس التى خلقت من أردأ الجواهر تسارع إلى الباطل بفطرتها، ذلك قوله تعالى فى الحديث القدسى: (قبضت قبضة بيدى فقلت: هذه للجنة ولا أبالى وهذه للنار ولا أبالى).

وإنما هى النوايا التى تقيم الحجة على صفاء جواهر النفوس أو رداءة جواهرها، وتلك النوايا حجة لصاحب النفس الطاهرة وليست حجة على غيره، والحجة على الغير هى الجوارح، فكأن الجوارح بريد النفس تظهر مكنونها، فترى أهل النفوس الخبيثة تظهر على

الجوارح شر الأعمال لأن نفوسهم لا تقبل إلا الشر، وأهل النفوس النورانية تظهر على الجوارح خشوعاً وخضوعاً وسمعاً وطاعة ومسارعة إلى ما أمر به الله وما سنه رسول الله ﷺ، وقد كشف الله تلك الحقائق لمن أقامهم مقام الرسل من الأبدال والصديقين والشهداء.

٧ الذين ابيضت وجوههم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ آل عمران ١٠٧، الواو هنا للعطف ﴿وَأَمَّا﴾ للشرط والتفصيل، وجملة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إلخ، معطوفة على الجملة السابقة ﴿ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ﴾ إذا أكرم المؤمن بالدخول فى الجنة، انبسط من الفرح، وعلاه نور الجنة فابيض وجهه، أخبرنا الله تعالى بذلك بشرى للمؤمن، وقد ورد فى القرآن آيات كثيرة دالة على هذا المعنى، بألفاظ متغايرة، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ عبس ٣٨-٣٩، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ القيامة ٢٢-٢٣.

﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يعنى أن الذين منحهم الله الاستقامة والتقوى، فداموا على ما كانوا عليه من كمال الإسلام والإيمان، فهم فى رحمة الله فى الدنيا والآخرة، ورحمة الله فى الدنيا هى الاستقامة والمحبة والإيثار والتوبة والاستغفار والتوفيق لمحاب الله ومراضيه، وفى الآخرة هى العفو والمغفرة وقبول التوبة ودخول الجنة والرضوان الأكبر والأُنس بمشاهدة وجه الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أى أن الله أكرمهم بالدخول فى رحمته الواسعة، وتفضل عليهم بالدخول فيها، وجواب شرط "أما" فى الآية محذوف، وتقديره "هؤلاء" فى رحمة الله هم فيها خالدون.

٨ جزاء المتقين يوم الدين

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ آل عمران ١٣٣.

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ هذه الآية الشريفة من متعلقات غزوة أحد والحكم فيها

عام أيضاً، والمسارعة لا تكون إلى المغفرة، ولكنها إلى ما ينيل العبد المغفرة من الله تعالى، والأمر فيها عام لا يختص بحكم دون حكم، لأن السياق يقتضى المسارعة إلى طاعة الله وطاعة رسوله فى كل أمر ونهى، وإن خصه بعضهم بقوله: هو الإسلام، أو الجهاد، أو الحج. والظاهر أنه لا قرينة تعين نوعاً من أنواع الأحكام دون غيره، ونيل المغفرة لا يكون إلا بالقيام بتأدية كل الأوامر واجتناب كل ما نهى الله عنه.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ هذا دليل على أن الجنة مخلوقة، وأن مكانها فوق السماء السابعة وسقفها العرش، وهى محيطة بالسماء السابعة وأكثر، حتى أن عرضها لو وضعت طبقات السماوات ومدت الأرض واتصلت بطبقات السماوات لكانت مثله، والعرض أقل من الطول بكثير فكيف طولها؟ وما دعا بعض من يجهل قدرة الله تعالى إلى السؤال بقوله: إذا كان عرض الجنة كالسماوات والأرض متصلة بعضها ببعض ممتدة، فأين تكون النار؟ الأمر هين عقلاً، لأن داراً سقفها العرش، ومكانها فوق السماوات السبع، والسماوات السبع تحت أرضها من كل جهة، وكل سماء فى جوف الأخرى، وبين الجنة والسماء السابعة كما بين الأرض والسماء السابعة من الارتفاع، هذه الدار يكون طولها بعد هذا التصوير مساوياً لعرض السماوات والأرض، ولكن الجاهل عدو نفسه.

وقد كتب هرقل ملك الروم فى الشام إلى رسول الله ﷺ يسأله: أنت تقول: الجنة عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فأجابه رسول الله ﷺ بقوله: (سبحان الله، هذا النهار فأين يكون الليل) وفى هذا الجواب الحجة البالغة، التى اخضعت أهل الشك والريب.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى أن الله تعالى خلق الجنة وجعلها دار نعيمه المقيم، وأعدها مجملة بما به مسرات الروح وبهجة العقل ولذة الجسم وأُنس الحس، وأكرم بها أهل التقوى من عباده المؤمنين وجعلها دائمة أبدية.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ آل عمران ١٣٦ .

الإشارة عائدة إلى المتقين الذين بين الله صفاتهم لنا، وأعد لكل واحد منهم جنة عرضها السماوات والأرض، ولما أن شرح لنا صفاتهم المتعلقة بقواهم النفسانية والأخلاقية والجسمانية، أعاد لهم البشرى بما به تطمئن قلوبهم، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أى هؤلاء الذين أثنيت عليهم، وأقمتهم موفقين للعمل بما أمرتهم به ونهيتهم عنه ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَة﴾ أى ستر لذنوبهم حتى ينساها كل مخلوق والملائكة الحفظة، لأن الذنوب والمعاصى معلومة لله تعالى لا تمحى، ولكنه يغفر والمغفرة هى الستر، فيسترها عن الشخص نفسه وعن الخلق، وعن معالمه من الأرض، وعن الملائكة وعن الخلق أجمعين، فيلقون الله تعالى وليس عليهم شاهد بذنب. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أى تلك المغفرة فضل من ربنا جل جلاله، لا بشفاعة ولا وسيلة ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أى وبساتين زاهرة زاهية، جامعة لأنواع المسرات الجسمانية والعقلية والروحانية، بحسب ما احتوت عليه من الجمال والكمال والنور﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى من تحت أشجارها.

وهذه الآية إشارة إلى دوام النعيم مع راحة الأبدان من عناء التعب فى تحصيل ما لابد منه، لنضرة النباتات من الماء، وقد أفرد الجنة فى أول الآية وجمعها فى آخرها، ليدل على أن كل واحد منهم له جنة خاصة لكمال مسراتهم، وطهارة قلوبهم من التنافس والحسد.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أثبت الله لهم البقاء فى الجنة، لتطمئن قلوبهم بدوام المسرات فى غير انزعاج من خوف حصول نقص، أو أمل فى مرغوب فيه لتوافر كمالياته، لأن الله تعالى لما قال: ﴿جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَة﴾ أمنا العذاب، وكلنا تشوقنا إلى نيل الخير، فقال: ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أى بساتين، ففرحنا، ولكنا تشوقنا إلى أن تكون تلك البساتين توفرت فيها لوازمها، وأعظم اللوازم هو الماء الذى كنا نتحمل فى تحصيله الشدائد الفادحة، التى تقع فيها المشاحنات والمنازعات والخصومات، خصوصاً إذا قام الظلمة بالانتفاع بالماء، وأهملوا الفقراء ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ففرحنا براحتنا من هذا الوجه، ولكن خطر ببالنا الموت الذى كنا نتوقعه فى الدنيا فى كل نفس، ونخاف منه ومما بعده، فأزال الله عنا تلك الوحشة، لتكمل لنا المسرات، وتتم علينا النعمة، فقال سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فلما بشرنا بالخلود عجزنا عن شكره سبحانه وصرنا معه جل جلاله، بعد أن أكرمنا بما هو فوق ما نشتهيه ونتمناه، فقال:

سبحـــانه: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يونس ١٠.

انظر إلى تفضل الله وإحسانه، كيف وفقنا وهدانا فى الدنيا للتوبة والإنابة إليه من معاصينا، وكيف أقامنا فيما يحبه ويرضاه من الأعمال القلبية والبدنية، وكيف تنزل جل جلاله فنسب ما تفضل به بإحسانه ومنته من التوفيق والهداية إلينا، ثم تفضل فضلاً أكبر وأعظم ومنحنا نعيم الآخرة الأبدى، والأُنس فى رياض الجنة، وجعل ذلك الفضل جزاء لنا وهو جل جلاله الفاعل المختار، وإذا كان هذا فضله، فالواجب علينا أن نعرف قدر أنفسنا لنعرفه، ونعلم أننا عبيد مقهورون وعباد مربوبون، أبدعنا البديع القادر الحكيم من العدم، وتفضل فجملنا بما يحبه من صفاته العلية، وهدانا لما يحبه من الإسلام والإيمان، وأعاننا على العلم بشرائع الإسلام، ثم أتم نعمته علينا بما أقامنا فيه من خير الخيرين فى دار كرامته، والأُنس فى جوار حضرته، فله الحمد وله الشكر حتى يرضى.

﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ يعنى أن المغفرة والجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والخلود فيها أجر عظيم لعملهم، ونعم هذا الأجر على عملهم هذا ظاهر الآية.

أما ما فيها من سرها الغامض فهذه الآية تنزل من الله لأحبابه، ليعلمهم كيف تفضل عليهم بما قاموا به، وكيف نسب إليهم هذا التفضل، ليعلموا كيف يتأدبون لحضرته العلية، وكيف ينظرون إلى أعمالهم القلبية والجسمانية فى جنابه جل جلاله، وهذا مشهد أهل التوحيد الكامل.

وظاهر الآية لأهل الظاهر، وسرها لأهل المحبة والقرب جملنا الله بما به نكون مقربين من حضرته، مشاهدين لغيب أنواره، حاضرين معه سبحانه.

الفوز العظيم هو رؤية جمال وجه الله تعالى

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ النساء ١٣.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أى تلك أحكام الله التى جعلها حداً فاصلاً بين الفوز بثوابه سبحانه، وبين الوقوع فى مخالفته جل جلاله. ثم بين ما للمطيع من الأجر فقال تعالى اسمه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى من يسارع إلى تنفيذ أوامر الله تعالى مجاهداً نفسه فى ذاته سبحانه ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ﴾ أى روضات يتنعم فيها بالنعيم المقيم، من غير عناء ولا مشقة، لأن أشجارها تجرى من تحتها الأنهار. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أى أن من يدخلها يعيش فى أنس وبهجة، لا يخطر على قلبه ما يوحشه من ذكر الموت والفقر، أو تسليط ظالم، أو أمراض. بل يكون فيها خالداً أبدياً فى لذة وسعادة لا نهاية لها، وذلك بسبب مسارعته لتنفيذ أوامر الله تعالى التى لم يحصل بسببها هم ولا كرب فى الدنيا، ولا ضياع أوقات فى تنفيذها، ولكن الذى يعمله هى كلمة؛ وهى الأمر بتنفيذ حكم الله فى تركته، فيفوز بهذه الملاذ دهر الداهرين.

ومسلم يتدبر أحكام الله، ويتدبر ما يناله من الخير العظيم بشئ قليل، وقهرته نفسه الأمارة بالسوء فيخالف أوامر الله تعالى فليس بمسلم فى الحقيقة، لأن مخالفته لأمر الله تعالى من الكبائر التى يدخل بها نار جهنم، من غير أن ينتفع بها فى الدنيا بشئ، ومن فقه قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الآية التى هى ختام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الخ الآية، والإشارة هنا إلى دخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والخلود فيها، والفوز معلوم. ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ كلمة مجملة، بينت ما يتفضل الله به على من يسارع فى تنفيذ أوامر الله تعالى فى الميراث، وتفصيل هذه الكلمة فوق أن تعبر عنه الألسنة إلا بقوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الزخرف ٧١، وبين هذه الكلمة رسول الله ﷺ بقوله: (فِيهَا مَا لاَعَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) فإن قول الله: ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ ليس كقول غيره سبحانه، فقد يكون العظيم عند الله تعالى

رؤية جماله سبحانه يوم القيامة، والنظر إلى وجهه العلى العظيم، أو غير ذلك مما هو فوق العقول.

١٠ معية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ النساء ٦٩.

سبب نزول هذه الآية أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أتاه عليه الصلاة والسلام منكسر القلب، ضعيفاً كالسقيم، فقال له رسول الله ﷺ: (ما بالك يا ثوبان؟) فقال: ما بى من وجع يا رسول الله ولا مرض، ولكنى كلما اشتقت إليك فى تلك الدار الدنيا حضرت وتمتعت بالنظر إلى وجهك، وإنى إذا أنا مِت وبعثك الله المقام المحمود وكنت فيما يليق بك واشتقت إليك أخاف أن لا أراك، وبكى، فأنزل الله تعال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية، بشرى لثوبان المملوك، لأنه ملكه الحب لرسول الله ﷺ، وصار لا يستطيع الصبر عنه صلوات الله وسلامه عليه. وورد أن كثيراً من أهل المحبة من المهاجرين والأنصار، كانوا إذا تذكروا يوم القيامة وأن رسول الله يكون بالرفيق الأعلى، وقوى الشوق إليه ولم يتمكنوا من شهود وجهه ﷺ، فيبكون حتى يكاد الرجل منهم أن يحترق إذا تذكر ذلك، فأنزل الله هذه الآية طمأنينة لقلوبهم، وهذا السبب الخاص لا يمنع من عموم الحكم، من أن كل مسلم أطاع الله ورسوله جعله الله تعالى ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾. وهذا الخبر من الله تعالى، وكونه مع النبيين والصديقين لا يقتضى مساواته بهم، فإن المعية تقتضى الاتباع لهم عليهم الصلاة والسلام، وتفسير الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أى الذين أطاعوا الله ورسوله ﴿مَعَ﴾ والمعية هى الفوز بالصحبة فى المكان، ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ هم الذين سبقت لهم الحسنى من الله وهم أنبيائه ﴿وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ والصديقون هم الذين صدقت قلوبهم أقوالهم وأعمالهم، فكانت قلوبهم أجمل عند الله من أقوالهم وأعمالهم أمام الناس، وهم كثيروا الصدق، وفى الأثر: (لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصدقُ حَتَّى يُكتَبَ عِندَ اللهِ صِدِّيقاً) والصديقون هم الذين انطوت النبوة بين جنبيهم إلا أنه لا يوحى إليهم ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾

هم الذين استشهدوا فى سبيل الله والذين أشهدهم جماله فى الدنيا ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم وأحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ قد يكون حسُن فعل تعجب، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة عائدة إلى من رفعهم الله تعالى إلى تلك المقامات ﴿رَفِيقًا﴾ أى مرافقاً، لأنه فى رفقة الأنبياء والصديقين والشهداء الصالحين.

١١ جزاء الأبرار

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ آل عمران ١٩٨.

بشر أهل الإيمان والتقوى بوعده الحق: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾أى الذين راقبوا ربهم مراقبة العالم الذى يخشى الله تعالى، فسارعوا إلى القيام بأوامره، وترك نواهيه سبحانه، وقد فصلت لك أنواع التقوى، بشرهم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أى يتصرفون فيها تصرفاً مطلقاً بدليل قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ ق ٣٥، فهى فى حكم المملوكة لهم بفضل الله تعالى ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أى من تحت أشجارها. وقد شرحت لك معنى جَنَّة، وجُنَّة، بفتح الجيم وكسرها وضمها، لأن المراد منها الستر﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وفى هذه الآية أنواع من البشائر.

البشرى الأولى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ كما بينت لك.

الثانية: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فهم فى راحة من عناء سقيا الأشجار.﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بشرى عظيمة، لأن قلوبهم اطمأنت بها للخلود من غير موت.

ولو قال قائل: إن خلود المؤمنين فى الجنة فضل عظيم، ولكن خلود الكافرين فى النار، قد يخيل للإنسان أنه ظلم! والجواب: أننا لو تركنا المؤمنين أبد الآبدين فى الدنيا، لما ازدادوا إلا إقبالاً على الله، وخشية منه ومسارعة إلى الأعمال الصالحات. ولو دام الكافر فى الدنيا أبد الآبدين لما ازداد إلا محاربة لله ولرسُله عليهم الصلاة والسلام، وجحوداً به سبحانه وتعالى، ووقوعاً فى أكبر الكبائر، وهذا جزاء ذلك، وما الله بظلام للعبيد.

﴿نُزُلًا﴾ نصبت على الحال، وجائز أن تكون مصدراً مؤكداً "والنُّزُل" هو ما يعده الرجل الكريم لضيفه، ثم يتحفه بعد ذلك بخير التحف، فتكون الجنة محل نزول المؤمنين، وتكون رؤية وجه الله تعالى. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حجة على أن العبادة فى الدنيا؛ والهداية والتوفيق فيها؛ والفوز بالجنة العالية يوم القيامة؛ كله فضل من الله تعالى، سبق به القدر أزلاً قبل الطاعات والقربات. وكذلك العذاب الأليم يوم القيامة؛ والكفر والجحود فى الدنيا من أهل الكفر، سبق به القدر أزلاً قبل وجود الكون والأناسى. قال بعض العارفين: (أنا لا أعبدُ ربَّاً تغضبه سيئاتى وترضيه طاعاتى) وإن ربنا المعبود جل جلاله أقام من شاء فيما شاء مما سبق به أزله، قال سبحانه: ﴿لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يونس ٢، وهذا القدم كان فى القدم. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ الأنبياء ١٠١.

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أى وما عند الله من النعيم المقيم والمسرات الدائمة خير للأبرار، وهم الذين أبروا الله تعالى فلم يخالفوا أمره، ولم يعملوا ما نهى عنه. وفوقه مقام آخر يتذوقه من القرآن أهل التمكين من أحباب الله تعالى، وإن لم يصرح به، وهو ما لدى الله تعالى، وهو خير للأخيار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ الإنسان ٥-٦، والأخيار هم المقربون.

١٢ الأجر العظيم الذى يتفضل الله به على المجاهدين

قال تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ النساء ٩٥، ذكر فى الآية الأولى أنه فضلهم درجة، وهنا يقول سبحانه: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأجر العظيم بلسان الله تعالى يدل على معان ثلاثة: المعنى الأول: الرضوان الأكبر، والمعنى الثانى: مقعد صدق، والمعنى الثالث: النظر إلى وجه الله الكريم، وهذا فيما أعلم هو الأجر العظيم، لأن الله سبحانه أخبرنا أنه وعد القاعدين بالحسنى، وبينت لك أن الحسنى هى المغفرة والجنة، فما بقى من الأجر العظيم إلا ما أقررته لك، والله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يونس ٢٦، فالحسنى ثبتت للقاعدين فما بقى إلا الزيادة، وهى النظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ﷺ: (يَتَجَلَّى لَنَا رَبُّنَا ضَاحِكًا) وهذا الحديث بسند الإمام أبى طالب المكى.

قوله تعالى: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء ٩٦.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ بدل من قوله ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعنى أن هذا الأجر العظيم الذى يتفضل الله به على المجاهدين بأموالهم وأنفسهم هو درجات عند رفع درجات، فقد تكون الرضوان، أو مقعد صدق، أو النظر إلى وجهه الكريم بعد المغفرة والرحمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أى: يستر ذنوب المسلمين الذين ختموا أعمالهم بالشهادة فى سبيل الله، ويرحمهم بقدر تعظيمهم لأوامر الله، ومسارعتهم إلى بذل الاموال والأرواح فى سبيله، والمغفرة هى الستر، ومن فهم أن المغفرة تمحو الذنوب جهل، لأن الحقائق ثابتة فى علم الله لا تمحى، ولكنه يسترها حتى عن الملائكة، وعن الشخص المذنب، وعن معالمه فى الأرض، قال ﷺ: (إِذَا تَابَ العَبْدُ أَنْسَى اللهُ الْحَفَظَةَ ذُنُوبَهُ وأَنْسَى ذلِكَ جَوَارِحَهُ وَمَعَالِمَهُ مِنَ الأَرْضِ فَيَلقَى اللهَ وَلَيسَ عَلَيْهِ شَاهِدٌ بذنبٍ).

١٣ جزاء أهل الإيمان الكامل

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ النساء ١٥٢.

قال تعالى:﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ النساء ١٥٢، الله ﴿أُجُورَهُمْ﴾التى وعدهم بها جزاء إيمانهم بالله ورسوله، وأكد سبحانه وتعالى أنه يؤتيهم أجورهم بسوف التى تفيد تأكيد الفعل المستقبل، كما أن لن لتؤكد النفى المستقبل، فإن كلا من لن وسوف حقيقُته للتأكيد، وأتى بحرف التسويف المفيد نيل الجزاء بعد فناء الدنيا والدخول فى أول أيام الآخرة، وتبتدئ بالموت فالبرزخ فالنشر فالحشر فالفوز بهذا الجزاء وهو وعد الله لأهل الإيمان بقوله تعالى: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ والأجور جمع أجر، والعطية على قدر معطيها، ولما كان الأجر من الله يلزم أن نعلمه ببيانه فى الآيات القرآنية فى غير هذه الآية، ولذلك الأجر فى البرزخ هو أنس الروح بمشاهدة ملكوت الله الأعلى فى عليين إلى حيث أرقى معارج القرب، وللروح بالجسم اتصال وهو فى برزخه ليحصل له الأنس فرحاً بما سيناله غداً، وبعد ذلك فالقيام من القبور حيث يقابلهم فضل الله تعالى من روح وريحان ومن نجائب أو رَفَارِفَ أو بُرُق أو أجنحة

يخلقها الله تعالى لمن يبعثون من قبورهم، يصيرون بها إلى مقر رضوان الله تعالى الأكبر، أو الفرار إلى دار الرضوان والفردوس لما كانوا يفرون من معاصى الله فى الدنيا إلى طاعته، وفوق ذلك من أنواع الأجور بما لا تفى به العبارة ولا تبينه الإشارة، حيث يكون المؤمن على منبر من نور أو مَقْعَد صدق عند مليك مقتدر، وما فوق ذلك حُظِرَ أن يُبين إلا للقلوب المطمئنة بذكر الله تعالى.

فلفظ أجور فى قوله تعالى:﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يجعل السامع يتذوق فضل الله عليه، لأنه هو الذى أبدع العبد وجمَّله بالقابل منه، ووفقه للهداية، وأقامه فى محابه ومراضيه، ثم يزيد هذا الإحسان بأن ينسبه إلى العبد ويحكم له بعطايا أخرى فوق تلك العطايا ويسميها أجُوراً، والأجر بحسب الظاهر هو المعاوضة والمبادلة التى تحصل بين المتعاملين، وتنزه الله تعالى عن أن له بما ينفعه أو ندفع عنه ما يضره حتى يعطينا أجر ذلك.

١٤ الله تعالى لا يزن العامة بموازين الأخيار

قال الله تعالى:﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الأعراف ٨.

إن الله تعالى لا يخفى عليه شئ لأنه سبحانه أعلم بكل شئ، وإنما كان السؤال وقص أخبارهم عليهم والوزن، لتقوم الحجة أنه سبحانه هو الذى وضع الأسباب وأقامها لحكم بعضها علم، وبعضها لم يعلم، وهو علام الغيوب، والوزن يوم القيامة بميزان له كفتان، ولسان كل كفة أوسع مما بين المشرق والمغرب، فتوضع الحسنات فى كفة، والسيئات فى كفة، والموزون حقائق الأعمال، ولابد أن يكون الوزن ملكوتياً لا ملكياً، فهو كما يعلمه الله، وعلينا أن نسلم لله تسليماً فى خبره.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أى موازين حسناته، فجعلها موازين لكل واحد، وجائز أن يكون للجميع، فإن كان المراد لكل واحد كانت الموازين بحسب الجوارح، فلأعمال الأُذُن ميزان، وللعين ميزان، وللبطن ميزان، وللفرج ميزان، وللأطراف ميزان، وللقلب ميزان، فتكون موازين.

وجائز أن يكون لكل واحد ميزان، فإن الأبرار لهم موازين خاصة توزن بها أعمالهم، والأخيار لهم موازين خاصة، وللعامة موازين خاصة، فإن الله لا يزن العامة بموازين الأخيار.

وكيف يزن أعمال من مقصدهم النظر إلى وجه الله العلى العظيم بأعمال من مقصدهم الجنة؟

وقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والمفلح هو الذى بلغ كل مقاصده، فإن طلب الجنة نالها، وإن طلب الحظوة بربه نالها، وإن طلب الرضوان الأكبر ناله.

وقد ورد أن رجلاً تعطى له سجلات أعماله، وإذا بها تسعة وتسعون سجلاً كلها سيئات، فيعتقد الرجل أنه ذاهب إلى النار ولا محالة، ويريد أن يذهب إلى النار، فيقول الله له: قف عبدى، فإنى حكم عدل، وإن لك عملاً عندى، فيقول ما هو العمل يا ربى بعد تسعة وتسعين سجلاً من الخطايا؟! فيقول الله: اعطوا عبدى ماله، فيخرجون له بطاقة من تحت العرش صغيرة جداً، ويقول الله: ضعوها فى ميزان حسناته، فيقول العبد: وما تلك البطاقة فى جانب هذه السيئات؟! فتوضع البطاقة وإذا فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فيضعها الملائكة فتثقل البطاقة حتى تطيح بالسجلات التسعة والتسعين، فيعجب الرجل من هذا ويؤمر به إلى الجنة، فيفرح ويقول: الحمد لله الذى وفقنى لقول " لا إله إلا الله " .

١٥ الرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر

من إقامة الصلاة أن يكون المصلى يذكر الله فيها الذكر الأكبر، وهو قراءة القرآن مع رعاية أن يسمعه من المتكلم جل جلاله، وهذا هو الذكر الأكبر الذى ينال به المؤمن رضوان الله الأكبر، والرضوان فوق روضات الجنات، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ التوبة ٧٢، فرفع الله الرضوان الأكبر على المساكن الطيبة فى جنات عدن.

وهذا الرضوان الأكبر هو جزاء أهل الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ العنكبوت ٤٥، وذكر الله أن يذكر المصلى الله تعالى فى الصلاة بالشهود، وقال بعض العارفين: الذكر الأكبر أن يذكر العبد الله تعالى، فيذكره الله تعالى، بدليل قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ البقرة ١٥٢.

تم بحمد الله

الفهرس

الباب الأول

النشأة الروحانية ٥

الفصل الأول

الحقيقة المحمدية ٥

الحقيقة المحمدية وجمال العودة للبدء ٥

الحياة بدءاً ٨

الحياة قبل أطوار الحقيقة الإنسانية ٨

فاتحة الإيجاد وخاتمة الإمداد ﷺ ٨

رمز بدئه وختمه ﷺ ٩

الفصل الثانى

الحقيقة الإنسانية ١٠

الحقيقة الإنسانية مخلوقة قبل أن يخلق الكون ١٠

أطوار الإنسان السبعة قبل إبرازه فى الكون المحسوس ١٠

أطوار الإنسان السبعة فى الكون المحسوس ١٠

أطوار الحقيقة الإنسانية ١١

جمال العودة إلى البدء ١٢

حضرة كُن ١٢

الفصل الثالث

ميثاق النبيين ١٣

من أسرار ميثاق الرسل ١٣

من أسرار القرآن فى الميثاق ١٤

غوامض أسرار ميثاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ١٧

الفصل الرابع

يوم (ألست) ١٨

من أسرار يوم (ألست بربكم) ١٨

يوم (ألست بربكم) ويوم الموعد ٢٠

سماع الخطاب المقدس يوم (ألست بربكم) ٢١

(ألست) موطن الأبرار ٢٢

من أسرار القرآن فى (ألست بربكم) ٢٣

لا ينفع الإنكار مع قيام الحجة ٢٥

حقيقة الحياة فى (ألست) ٢٥

جمال التجلى يوم (ألست) ٢٦

الفصل الخامس

آدم عليه السلام ٢٨

من المضنون ٢٨

الأمانة هى ما فيك من أوصاف باريك ٢٨

الإنسان شجرة ربه ٢٩

سر أكل آدم ٣٠

الأمانة ٣١

الإنسان صورة الرحمن ٣٢

حكمة سجود الملائكة لآدم ٣٣

سر السجود لآدم ٣٦

حكمة دخول آدم الجنة ٣٧

الفردوس ٣٩

من أسرار القرآن فى الخلق والتصوير وسجود الملائكة لآدم ٤١

الباب الثانى

النشأة الكونية ٥٤

الفصل الأول

بطن الأم ٥٤

الأوطان خمسة ٥٤

أطوار الإنسان فى وطن بطن الأم ٥٤

خلق ابن آدم من سبع ٥٨

الخلق من سلالة سلت من كل بقعة ٥٨

التصوير فى الأرحام ٥٩

كمال العناية الإلهية بالحقيقة الإنسانية ٦٠

الفصل الثانى

الحياة الدنيا ٦١

الدنيا ٦١

العمل فى الدنيا لابد منه ٦١

حياة الكون وما فوقها ٦٢

يا قلب فكر تر الدنيا أباطيلا ٦٣

أنواع الحياة ٦٤

حياة العبد ٦٥

رشفة من طهور العرفان فى إحياء القلوب ٦٦

الفصل الثالث

الجنة العاجلة ٦٧

الجنة العاجلة هى جنة الرضا والشهود ٦٧

ألق أذن روحك ٦٨
مقام الرضا ٦٩
الغضب لله عين الرضا عنه سبحانه ٧٠
فضائل الرضا ٧١
الرضا حصن الأمن ٧٢
الرجوع إلى الله فى الحياة الدنيا ٧٣
الشهداء وأهل اليقين أحياء عند ربهم ٧٦
جنة معرفة الله تعالى ٧٦
عين اليقن وحق اليقين ٧٧
عين اليقين ٧٧
حق اليقين ٧٧
حق اليقين (قصيدة) ٧٨
بعد اليقين شهودى ٧٩
العارف بالله ٨٠
وصف العارفين بالله تعالى ٨٠
حقيقة الموتة الإرادية ٨٢
الحياة الكونية بعد الموتة الإرادية ٨٢
الإنسان من البدء إلى الأبد ٨٥
الرضوان الأكبر فى الحياة الدنيا ٨٥
فى دار الفناء البقاء ٨٦
رؤية الله تعالى فى الحياة الدنيا ٨٦
رؤية الوجه الجميل ٨٧

الباب الثالث

البـرزخ ٨٨

الفصل الأول

حسن الخاتمة ٨٨

المسلم مقبل على رب كريم ٨٨

حالة المؤمن عند لقاء ربه ٨٨

أحوال القوم عند حلول الموت ٨٩

دعاء ٩٠

من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٩٠

حسن الظن بالله ثمن الجنة ٩١

حسن الخاتمة ٩٢

الفصل الثانى

الحياة البرزخية ٩٤

متاع البرزخ وخيراته ٩٤

دفن المؤمن بجوار أولياء الله الصالحين تبركاً بهم ٩٤

من أنواع نعيم القبر ٩٥

الأنبياء والأولياء أحياء فى قبورهم ٩٦

الأولياء يقرأون القرآن فى قبورهم ٩٨

الأولياء يجيبون المؤذن من قبورهم ٩٨

أريج رائحة المسك والريحان والياسمين تفوح من قبور الصالحين ٩٨

توالى الخيرات المعنوية والحسية على الشهداء فى البرزخ ٩٩

الحياة الروحانية للشهداء فى البرزخ ١٠١

الموت قبل الموت حياة المجتبين ١٠٣

دعاء ١٠٤

الفصل الثالث

زيارة أهل البرزخ ١٠٥

زيارة النبى ﷺ وما يستحسن عند الزيارة ١٠٥

آداب الصحابة والسلف فى الزيارة ١٠٥

شهود أهل الحب والواهين ١٠٧

زيارة القبور ١٠٧

تفاوت سكان القبور ١٠٨

زيارة قبور أولياء الله الصالحين والرد على منكريها ١٠٨

زيارة قبور الأنبياء والأولياء مرغب فيها ١٠٩

أسباب إنكار الجاهلين بالسنة لزيارة القبور ١١٠

الرسول وخلفاؤه يزورون قباء وشهداء أحد ١١٠

الرد على إنكار زيارة أهل البيت والأولياء ١١١

الحكمة فى زيارة القبور ١١٢

ذكرى ودعاء عند الزيارة ١١٣

سلام على أهل المقابر ودعاء لله تعالى ١١٣

الشهود والأنس والصفاء فى البرزخ ١١٤

رؤية الأرواح فى حضرة الإطلاق ١١٤

أيها المؤمن آو إلى كهف ربك ١١٥

الباب الرابع

البعث والحشر ١١٦

الفصل الأول

البعث ومنازل الآخرة ١١٦

النفخة الأولى، الشهداء لا يحزنهم الفزع الأكبر ١١٦
النفخة الثانية، أهل الاصطفاء لا يسمعون حسيس الصعقة ١١٦
النفخة الثالثة، إشراق الأرض بنور ربها ١١٧
تفاوت المنازل يوم القيامة ١١٧
المؤمن فى الآخرة فى سرور وبهجة وفضل وإحسان ١٢٠
من فضائل رسول الله ﷺ ١٢١
من فضائل رسول الله ﷺ أنه أعطى الكوثر ١٢١
من فضائل رسول الله ﷺ أعطى الحوض المورود ١٢٢
من فضائل رسول الله ﷺ أعطى الشفاعة العظمى ١٢٣
الشفاعة فى القرآن ١٢٣
الشفاعة فى الأحاديث ١٢٤
المقام المحمود ١٢٥
فضائل الأمة المحمدية ١٢٦
شفاعة المؤمنين يوم القيامة ١٢٨
رشفة من طهور الأرواح ١٣٠
إلى المرجى ليوم الهول فى الحشر ١٣٢
رؤية الله تعالى ودلائلها ١٣٣
دليل رؤية الله تعالى من الكتاب ١٣٤
دلائل رؤية الله تعالى من الحديث ١٣٧
بشائر المتحابين فى الله يوم القيامة ١٣٧
الحب فى الله تعالى ١٣٩

الفصل الثانى

من أسرار القرآن فى جمالات الآخرة ١٤٠

جمالات الحياة فى الجنة ١٤٠
المرء مع من أحب ١٤٣
الرزق الجامع للخيرات ١٤٤
حُسن المآب ١٤٤
الرضوان الأكبر جزاء المتقين ١٤٥
تجلى الله تعالى ١٤٧
الذين ابيضت وجوههم ١٤٨
جزاء المتقين يوم الدين ١٤٨
الفوز العظيم هو رؤية جمال وجه الله تعالى ١٥٢
معية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ١٥٣
جزاء الأبرار ١٥٤
الأجر العظيم الذى يتفضل الله به على المجاهدين ١٥٥
جزاء أهل الإيمان الكامل ١٥٦
الله تعالى لا يزن العامة بموازين الأخيار ١٥٧
الرضوان الأكبر جزاء أهل الذكر ١٥٨
الفهرس ١٦٠

almashahed
www.almashahed.com